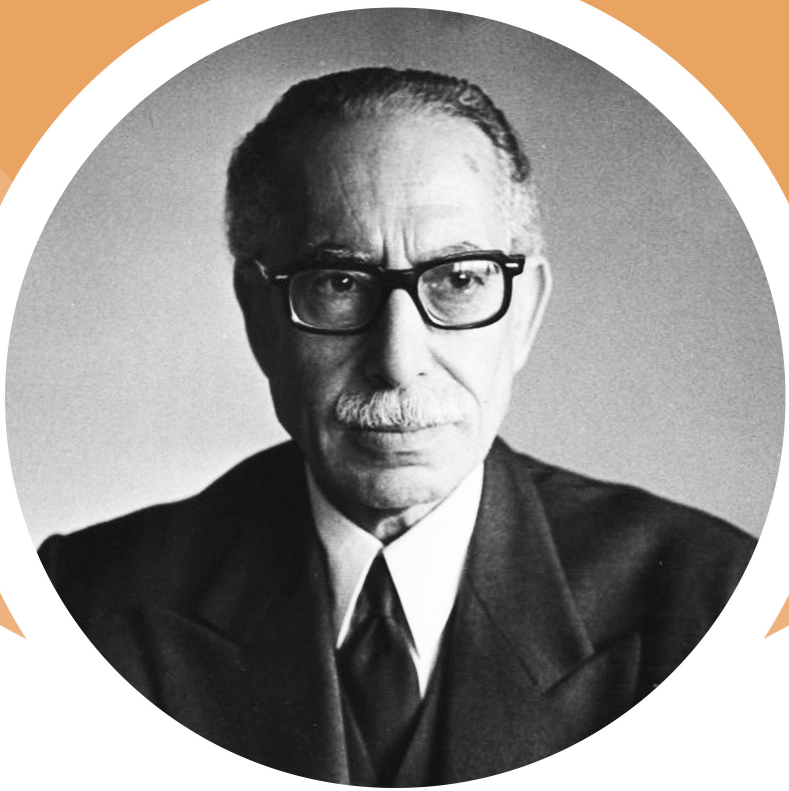

ليلة الزفاف

توفيق الحكيم

ليلة الزفاف

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

ليلة الزفاف

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٤ ٣٢٤٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٦٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

مقدمة	٧
ليلة الزفاف	٩
طريد الفردوس	٢١
لا كرامة لنبي في وطنه	٣٥
الدنيا رواية	٣٩
مدرسة المغفلين	٤٩
الشيخ البلبيسي	٥٥
إبليس ينتصر	٥٩
نصيب	٦٣
كليوباترا وماك	٧٧
موقف حرج	٨٧
مراكب الشمس	٩٣

مقدمة

بعض القصص التي يضمُّها هذا الكتاب قد بُني على حوادث وقعت بالفعل في مجتمعنا، كما أن بعضها بُني على ما يحدث في الحياة الإنسانية. وهناك فرق بين تصوير المجتمع وتصوير الحياة، فمصور المجتمع لا بد أن يتقيَّد بما رأى وشاهد وعرف، إذا أراد أن يكون صادقًا، فلا ينبغي له التعرض لبيئة أو طبقة لا يعرفها.

ملاحظة الواقع شرط من شروط التصوير الاجتماعي ... أما تصوير الحياة فأمر آخر؛ لأن الحياة أشمل من الواقع ... فالحياة الإنسانية يدخل في نطاقها الواقع وغير الواقع؛ لأن حياة الإنسان — على خلاف حياة النبات والحيوان — لا تقف عند حد الوجود المادي ... بل هي تشمل الوجود في مختلف نواحيه، المنظورة وغير المنظورة، المادية والروحية.

ولعلَّ سمو قصة «هاملت» لشكسبير راجع إلى إحاطتها الكاملة بالحياة البشرية، في غرائزها ومشاعرها وخيالاتها وأشباحها وتفكيرها، فيما هو كائن على الأرض وما هو غير كائن إلا فيما بعد الموت.

حياة الإنسان هي أعجب ما في الخليقة لأنها أوسع ما في الخليقة.

والقصة القصيرة، باعتبارها لونًا من ألوان الفن، يجب أن تتناول ذلك كله فيما تتناول من شئون الإنسان في مجتمعه وحياته ... ومهمتها في ذلك عسيرة ... لأنها فن اقتضاب وتركيز، شأنها في ذلك شأن المسرحية والقصيدة.

وهذا التركيز هو الذي قد يجعل منها فن المستقبل — في رأي بعض أهل الأدب العالمي اليوم — ذلك أن أدب المستقبل لن يحتمل الإسهاب ... وقارئ اليوم والغد يكاد تكفيه اللمحة الخاطفة لإدراك الصورة الكاملة، وتكاد تُغنيه الإشارة عن الإطناب في العبارة.

فالقارئ الحديث الذي يعيش في عصر الطائرات النفاثات لن يطيق طويلًا الاسترخاء في مطالعة مئات الصفحات ليحيط بصورة من الصور أو شخصية من الشخصيات ... كما

أن وجود الراديو والتليفزيون لن يتيح وقتًا لقارئ ينفقه في مطالعة كتاب طويل إلى جوار المدفأة، كما يقول الأوروبيون ... فإن ركن المدفأة الذي ترعرعتْ في كنفه القصص الطويلة لأمثال بلزاك، وفلوبير، ودستوفسكي، وتولستوي، وسكوت، وديكنز، وغيرهم، هذا الركن لم يعد يحتله الكتاب وحده الآن كما كان في الماضي ... بل يشاركه فيه اليوم صناديق الفن الصوتي والمرئي وبرامج مختلفة من مسموع ومنظور.

أترى مجد القصة الطويلة قد انقضى بانقضاء القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؟

مهما يكن من أمر، فإن طابع المسرحية والقصة القصيرة — بما فيه من ضغط وتركيز وإيجاز وتلميح — هو الأدنى إلى طابع العصر الحديث في مستقبله القريب.

ومن يدري؟ فقد تدور الأيام دورتها وتصبح البلاغة في عُرف العالم القادم، كما كانت في عُرف الأدب العربي الغابر، هي بلاغة الإيجاز، يفرضها على العالم اليوم عصر السرعة ... كما فرضها قديمًا عند العرب الرحل سرعة تنقُّلهم بين واحات الصحراء.

السرعة في كل زمان ومكان تُنمي في الإنسان سرعة الإدراك وسرعة التلقي والاستيعاب، فيتخذ الفن تبعًا لذلك من القوالب ما يتفق مع روح العصر والحياة.

ليلة الزفاف

انطلقت آخر «زغاريد» ذلك القِران الميمون في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ... وزُفَّ «العروسان» إلى حجرتهما بعد أن رُشَّا بالملح من عيون الحُسَّاد ... وأُغلِق عليهما الباب وصارا وحدهما أخيرًا ... وقد اجتازا الأعتاب نحو تلك اللحظة التي لم تُخلق مثل كل اللحظات ... تلك اللحظة التي تشع كاللؤلؤة البهيجة في تاج الزمان ... زمان كل فرد على هذه الأرض ... من الملوك إلى الصعاليك ... تلك اللحظة التي بُذِل فيها ما بُذِل ... ومن أجلها احتشد المعارف والأصدقاء، واحتفل الأهل والأقرباء، ونُصِبت الموائد، وقُرعت الكئوس، ولَعب الفرح والأنس بالرءوس، وحمي الرقص وارتفع الغناء وسبح الحاضرون وعاموا في أويقات من الهناء ... جاءت تلك اللحظة ... قمة السهرة، وقبة الحفلة، ومحراب الليلة ... لحظة الخلوة بين العروسين ... ويا لها من لحظة! كل زوج ولا شك يذكر حيرته وهو يبحث في رأسه عن أول كلمة يُخاطب بها عروسه وقد صارا على انفراد ... أيبدأ بكلمة جدية أم كلمة فكهة ... أم كلمة عاطفية؟ ... وكل زوجة تذكر ولا ريب إحساسها وهي تنتظر الكلمة الأولى من فم «عريسها»!

أما عروس الليلة فلم يَبْدُ عليها أنها تنتظر شيئًا ... فما كاد باب حجرة العُرس يُغلَق، حتى تركت «عريسها» واتجهت إلى منضدة الزينة، وجلست ووضعت رأسها الجميل في كفَّيها ... ورأى «العريس» منها ذلك، فأقبل عليها يقول: أمتعبة أنتِ يا عزيزتي؟ ... صخب العُرس أزعجك فيما أرى!

فلم تُجِب ... ولم يرَ العريس وجهها الذي تُخفيه بيديها، ولكنه لم يلبث أن رأى قطرة دمع تفرُّ من بين أصابعها، وتسقط على ثوب عُرسها الأبيض ... فقال بصوتٍ يتهدج حنانًا: أتبكين يا سونة؟!

فلم يسمع منها غير نشيج خافت ... فتألم لها ... إنه يعلم السبب ... إن سنية وحيدة أمها ... وقد فقدت أباها منذ بضعة أعوام ... فالافتراق عن هذه الأم العزيزة التي كانت لها كل شيء ليس بالأمر اليسير ... ولعل هذه الفكرة هي التي كانت تُخيم عليها طول الحفلة ... لقد كانت مطرقة واجمة ذاهلة، قليلة الكلام نادرة الابتسام فحدب عليها، وألصق خده برأسها، وقال لها: لا تبكي يا عزيزتي سونة ... سأكون لكِ أُمًّا وأبًا وزوجًا وأخًا ... ولن أجعلك تشعرين أبدًا أنكِ فقدتِ شيئًا أو فارقتِ أحدًا.

فأبعدت رأسها عن خده، وأرادت أن تتكلم، ولكن الدموع غلبتها ... فبادر هو يقول لها: لا تتكلمي! ... إني أعرف ما تريدين أن تقولي ... أطلقي دموعك ولا تكتميها ... هذا أمر طبيعي ... لست أخشى إلا على عينيكِ الجميلتين ... ولكن البكاء في مثل هذه الحال يجلو النفس، وعما قليل تشعرين بالراحة، ويشرق وجهك، كأنه شمس تسطع بعد مطرٍ خفيف لطيف.

فاهتزَّت كأن في جوفها معركة ... ثم تشجعت وقالت والدمع في عينيها: أريد أن أصارحك بشيء ... هل تسمح لي؟

– بالطبع يا سونتي ... بالطبع ... صارحيني بكل ما في نفسك ... ألسنا الآن زوجين؟ ... لا ينبغي أن يخفي أحدنا عن شريكه شيئًا.

– نعم، من واجبي أن أقول لك ... وأرجو ألا تتألم أو تغضب: إني أحب شخصًا آخر.

لفظتها بسرعة وقوة، ثم استخرطت في البكاء ... ودوت هذه العبارة في أُذن العريس كأنها قذيفة، وأذهلته المفاجأة، فلم يحس ألمًا ولا غضبًا ... بل لم يشعر بنفسه ولا بما حوله ... ولا بالوقت الذي مرَّ قبل أن يتماسك ويثوب إلى رشده، ويعي مدلول ما سمع ... وينظر فيما ينبغي أن يصنع ... وكان رجلًا رزينًا عاقلًا في نحو السادسة والثلاثين، علَّمته تبعات منصبه المحترم أن يزن الأمور ... فسرعان ما ضبط نفسه، وقال بهدوء ممزوج بالمرارة والعتب المهذب: ألا ترين أن هذا التصريح جاء متأخرًا بعض الوقت؟ ... هل كان لديكِ مانع من الإفضاء به إليَّ في أيام الخطبة أو قبل إبرام العقد على الأقل؟

– كان يجب أن يتم هذا القِران إرضاء لأمي المسكينة ... كنت أراها أتعس مخلوقات الأرض كلما حاولت إقناعها بفسخ خطبتنا ... لقد كان أملها الوحيد، وحلمها الدائم أن تراني زوجة رجل مثلك! ... ولقد خانتني شجاعتي فلم أجرؤ على صدمها في آمالها ... وهي مُسنة ضعيفة مريضة ... إن الله يعلم كم جاهدتُ كي أكتم عاطفتي وأخنق حبي، وكم أردتُ آخر الأمر أن أُفهم نفسي أن الماضي قد انتهى بالزواج ... وقد خُيِّل إليَّ أن قلبي

قد استجاب لنداء العقل، لكني الليلة، وقد تم الأمر، وأمسى كل شيء حقيقة ... سمعت صرخات قلبي تهزني هزًّا وتكاد تهدم كياني، فأيقنت أني لن أستطيع المُضيَّ في خداع نفسي ... ولا يليق بي المضيُّ في خداعك.

كانت تقول ذلك وهي تشهق ببكائها وتنشج ... وأطرق العريس وفكر فيما أفضت به مليًّا ... ثم قال: تصرُّف سليم، ولا غبار عليه ... ثقي أني من جانبي على أتم استعداد لمعاونتك فيما يتجه إليه عزمك ... الحق معكِ ... يجب ألا تخدعي نفسك ... استمعي إلى صوت قلبك ... وما دام حبك صادقًا ... فليس لأحد عليكِ سبيل ... إني أضع حريتك بين يديكِ منذ الآن، وأضع نفسي في خدمتك، فلنتدبر الأمر معًا ... كيف نخرج من هذا الموقف أولًا؟ ... هبي أني طلقتك الليلة، ما الذي سيحصل؟ ... ستكون فضيحة لن أرضاها لكِ، ومصدرًا للأقاويل والإشاعات حولك لن ينضب ... ثم هي صدمة قاسية لوالدتك ... وأنتِ التي أشفقتِ عليها من صدمة أخف وأهْوَن! ... إذن ماذا نصنع؟ ... فكري معي قليلًا.

– أصبت ... إن طلاقي الليلة فضيحة.

– فلنبحث عن حلٍّ غير هذا ... ابحثي جيدًا.

– ها أنا ذي أبحث.

وجلس كل منهما يفكر، وقد جعل رأسه في كفيه ... وأخيرًا نهض العريس صائحًا:

وجدت حلًّا، ربما كان فيه الخير، ولكنه يتطلَّب منك بعض الصبر، ومني بعض القدرة على التمثيل ... ذلك أن أُطلقك بعد شهر أو شهرين، وفي خلال هذه الفترة أتظاهر أمام الناس، وعلى الأخص أمام والدتك، أني فظُّ الخُلق شرس الطباع، وأني أُسيء معاملتك ... بهذا نعدُّها إعدادًا رفيقًا لتحمُّل يمين الطلاق ... بل قد ينفد صبرها هي فتحثك قبل انقضاء المدة على طلب الانفصال، فإذا تم ذلك رأت بعدئذٍ حلمها ومحط أملها في ذلك الذي اختاره قلبك ... ما رأيكِ في هذا الحل؟

– مدهش!

لفظتها وهي تريد أن تكفكف دمعها و«تنف» فلم تجد غير طرف ثوبها ... فأسرع العريس قائلًا قبل أن تتمخط فيه: انتظري ... انتظري ... خذي منديلي، ولا توسخي ثوب عُرسك، حافظي عليه للقِران الآخر!

فتناولتْ منديله وهي تقول: إنك رجل نبيل ... إني آسفة ... ما ذنبك أنت حتى أُعكر عليك صفو هذه الليلة؟ ... وماذا جنيت أنت حتى تُفجَع هكذا في عَروسك؟ ... ولعلك علقت آمالًا كبارًا على هذا الزواج.

فأطرق لحظة ... ثم قال كالمخاطب نفسه: لا تذكِّريني ... أقصد ... لا تُعلقي على هذا الأمر أهمية.

– إني متألمة.

– لا تتألمي لي ... إني بخيرٍ ... إنكِ على كل حالٍ لستِ مسئولة عما وقع لي ... حظي هكذا ... حقيقةً لقد وضعت في هذا الزواج أملي، لأني كنت دائمًا رجلًا شحيحًا بعواطفه ضنينًا بفؤاده ... استغرقتني حياة العمل، فلم أعرف من حياة اللهو إلا القليل، ولم أُعطِ امرأة من نفسي شيئًا نفيسًا ... ادخرت كل ما في قلبي من حبٍّ للزوجة التي هي نصيبي ... كنت أتخيلها في أوقات فراغي وهي إلى جانبي، وأتخيل ما أُناجيها به من حدب وعطف وحب وحنان، كدَّسته كدنانير البخيل على مرِّ الأعوام من أجلها ... لكن القدر أراد أن يُصيبني فيما كنزت كما يُصيب أحيانًا البخلاء فيما يكنزون ... لأنه يحلو له السخرية ممن يركزون همهم في هدف ... فيتربص بهم حتى يقتربوا منه، فيعبث به بطرف إصبعه، فإذا جهودهم هباء.

– كل ذلك بسببي ... أنا مجرمة.

– لا ... مطلقًا لا شأن لكِ بالأمر ... إن مثلي مثل ذلك الذي ظل يجمع المال ويدخره ليشتري به عينًا، فلما تم له ذلك واشترى العين وجدها محجوزًا عليها أو مرهونة لآخر رهنًا عقاريًّا ممتازًا لا فكاك منه ... فما ذنب العين في هذه الحال؟ ... الذنب ذنب الادخار ... والبخل ... وليتني جعلت شعاري: «أنفق ما في الجيب يأتك ما في الغيب»!

إن كلامك يحز في نفسي كسكين ... لست أدري ماذا في إمكاني أن أصنع لك ... من يدري؟ ... ربما عوضك القدر عني خيرًا ... وجاءك الغيب بزوجة أحلامك ... إني لم أكن بك جديرة.

– هذا لُطف منك يا سو ... يا سنية ... سنية هانم ... اعذريني ... لم أعد أدري كيف أناديكِ.

– عجبًا ... نادني كما كنت تناديني منذ لحظة.

– أمام والدتك بالطبع ... أما ونحن وحدنا ... فلا حق لي.

– لماذا؟

– لم يعُد لي حق تدليلك ... أنتِ منذ الآن — كما قلت لكِ — أجنبية عني، ولا أدري ماذا نصنع الآن، ووالدتك في البيت، ولا بد لنا من المكث في حجرة واحدة ... اسمعي: أنتِ لك السرير، وأنا لي الأرض ... ها هنا بجوار الباب في ذلك الركن البعيد ... هيا انهضي إلى فراشك ... أنتِ في أشد الحاجة إلى الراحة الليلة، بعد كل هذه الأحداث المثيرة لأعصابك.

– تنام على الأرض؟!

– لا يوجد وضع آخر!

– هذا صحيح، مع الأسف، ولكن سامحني ... أرجوك ... أهكذا أجعل ليلة عُرسك على هذه الصورة غير البهيجة!

– ما لها ليلة عُرسي! ... إني راضٍ بها ... هل يُتاح لكل عريس مثلها؟ ... ثقي أنه سيظل لها دائمًا في نفسي ذكرى عزيزة.

– إنك تريد أن تنفي عني كل مسئولية ... على كل حالٍ الوقت الآن غير مناسب لمجادلتك ... فلأَعِد لك مكانًا مريحًا لمبيتك ... فأنت الذي أنهكتك — ولا شك — هذه المفاجأة غير السارة ... أرى فوق السرير «مرتبتين» فلأفرش واحدة منهما على الأرض ... وليكن توزيع المكانين بيننا بالقُرعة ... ما رأيك؟

قال لها مبتسمًا: موافق ... إني مطمئن إلى سوء حظي.

ونهضتْ من فورها ... ونهض هو ... فتعاونا على نقل إحدى حشيتي السرير إلى ركن من أركان الحجرة ... وأخذت هي في وضع الوسائد وتهيئة الفراش الأرضي، حتى فرغت منه، فطلبت إليه عُملة من ذات القرش، واتفقا على أن الذي يخرج له الوجه ذو الصورة يظفر بالسرير ... ورمت بالقطعة النقدية في الفضاء، فإذا هي الظافرة ... فقال لها: ألم أقل لكِ إني أعرف بختي؟!

– إني أخطأت الرمي، فلنعد القرعة من جديد.

– لا ... لا ... من فضلك ... حافظي على مبدئك: الصراحة والصدق وعدم الخداع ... لقد كسبتِ أنتِ، وخسرت أنا ... فلا محل للمراوغة ولا لزوم «للحمرأَة»!

فقبلتْ على مضض ... وخرج من الحجرة إلى أن خلعت ملابسها واندسَّت في سريرها، فعاد وخلع ملابسه وأوى إلى فراشه ... ومدَّت ذراعها البضة المرمرية إلى زر المصباح بقربها وهي تقول مستأذنة: هل أطفئ النور؟

– إذا شئتِ ... وأتمنى لكِ نومًا هنيئًا ... ومستقبلًا سعيدًا مع من اختاره قلبك ... وإني واثق من أنكِ أحسنتِ الاختيار ... ولو أنكِ لم تحدثيني عنه.

– إنه ضابط ... ملازم أول.

– وشاب جميل بالطبع، ويصغرني بعشر سنوات على الأقل فلا جدوى في منافسة ... ولا أمل في مقاومة.

لفظها هامسًا وهو يخاطب نفسه، فسألته: ماذا تقول؟

– لا شيء ... أطفئي النور ... تصبحين على خير.

مرَّت الأيام والزوج يمثِّل الدور المتفق عليه خير تمثيل، ويُشعر حماته برفقٍ أنه ليس الزوج المثالي الذي كانت تتمناه لوحيدتها ... غير أن المشكلة التي استعصت عليه هي مسألة الحجرة المشتركة ... إن هذه الحال بينه وبين زوجته «المزيفة» لا يمكن أن تدوم على هذا الوضع ... إنه لا يستطيع النوم وهي معه في غرفة واحدة، هكذا كأنهما غريبان، وبينهما حيوان شهوان، بالحرمان يزأر، وبالرغبة يجأر ... إنه يحس كأن أنفاسها الحارة تلفح وجهه ... كل حركة منها تطرد النعاس من أجفانه، إذا سعلت نهض يُجرد نفسه من غطائه ليدثرها به ... وإذا نفذ شعاع القمر من النافذة، قام على أصابعه يتأمل وجهها البديع السابح في ضوئه، ثم يسدل بعد ذلك الأستار، حتى لا يزعجها النور ... وإذا تقلَّبت على أحد جنبيها تَقلَّب هو أيضًا ... وإذا نهضتْ بالليل لحاجة، تصنَّع النوم العميق وكتم أنفاسه المضطربة، حتى لا تعلم أنه يقظان ... إنها فتنة دائمة نائمة فوق سرير ... ولكنها مستيقظة ثائرة ساهرة في جوفه ... كل شيء منها يقض مضجعه ... ويحطم أعصابه وإرادته ويجعله يضطرب في فراشه كأنه ريشة: رائحة جسدها في أنفه، وتنهداتها اللطيفة في النوم، وشخيرها الخفيف الهامس المتقطع، وطريقتها العجيبة في نومها، وهي منبطحة على وجهها، بشعرها المتدلي ونحرها العاري ووسادتها التي تضغطها وتضمها في حضنها ... إنه لعذاب لا يستطيع أن يتحمَّله رجل من لحم ودم ... إنه تحمَّل ذلك ليلة وليلتين وثلاثًا وأربعًا ... وكاد ينقضي الأسبوع ... ولكن المضي في ذلك لفوق الطاقة والاحتمال ... كيف يصنع؟ ... والبيت ليس فيه للنوم غير المكتب أو البهو أو قاعة حجرتهما هذه ثم حجرة أخرى تشغلها حماته، أيبيت في قاعة الطعام؟ ... وما عسى أن يقول الخدم والحماة في هذا التصرف من عريس؟ ... وحماته لن تفارقهما أبدًا ... إذ ليس لها غير ابنتها ملاذًا ... لم يرَ إلا أن يصبر صبرًا جميلًا ... وأن يُسرع في إنهاء مهمته ... وجعل يشتد يومًا بعد يوم في إظهار غلظ طباعه ... وحماته تتغاضى حرصًا على هناء ابنتها ... وابنتها لم تكن متقنة لتمثيل دورها ... فما كان يبدو عليها غضب من طباع زوجها «الموهومة» ... ذلك أنها كانت تعلم أنه إذا خلا بها في الليل جعل يعتذر لها عن إساءات النهار ... وانتهى بها الأمر أن صارت تُسر لهذا اللون من التمثيل كأنها طفلة، وتكاد تضحك بدل أن تغضب ... وهو يغمزها بعينه، ويحثُّها على التظاهر بالتقطيب ... بل كانت تغلط أحيانًا وتُدافع عنه أمام أمها أو الزائرين إذا وُجِّه إلى طبعه نقدٌ ... فتفلت من بين شفتيها كلمة «والله مظلوم!»

إلى أن جاء يوم خطرَ فيه للزوج خاطر، وجد فيه العلاج لسُهاد الليل ... ذلك أن يلجأ إلى منزل صديق قديم أعزب، يرتاح عنده وينام من العصر حتى المساء ... وأخبر حماته

وزوجته أن أعمالًا طرأت ترغمه على هذه الغيبة ... وصار لا يعود إلا في العاشرة ... وأحيانًا في منتصف الليل ... ولا ضير عليه في ذلك، فهذا يمكن أن يدخل ضمن برنامج التمثيل لدوره البغيض.

وعاد ذات ليلة في الثانية صباحًا ... فقد دُعي إلى عيد ميلاد صديق، وكانت ليلة بريئة فيها طرب وغناء ومزاح ... فرأى لدهشته، زوجته تستقبله في سريرها مستيقظة مقطبة ... لا تقطيب تمثيل ... بل تقطيب غضب حقيقي ... فلما أبدى لها العذر، وبيَّن لها السبب ... سكتت غير مقتنعة ولا راضية.

ومرَّت أسابيع، فإذا هي تطلب إليه يومًا أن يذهب بها إلى السينما ... ورأى حماته تُحبذ الفكرة قائلة: نعم ... اذهب يا ابني بعروسك وتنزَّها معًا كما يفعل كل «العرسان»!

فرأى من واجبه أن يكون فظًّا سيئ الأدب ... فقال: ما كان ينقصني إلا هذا: أنا أخرج مع بنتك إلى السينما؟!

– وما المانع؟ ... أليست ظريفة جميلة؟ ... إنها عروس تُشرف أحسن عريس!

– هذا رأيك أنتِ وحدك.

– عيب يا ابني.

– على كل حالٍ، ليس عندي وقت أُضيعه في نزهة بنتك.

وهنا احْمَرَّ وجه الزوجة غضبًا، وقالت: وعندك وقت تُضيعه في السهر لما بعد منتصف الليل؟!

– هذا شأني.

– لن أخرج معك في حياتي ... أبدًا ... أبدًا.

وتركته وانصرفت مُسرعة إلى حجرتها ... وأطرقت الحماة أسفًا وألًما ... أما هو فقد خرج إلى شأنه، كما اعتاد أن يصنع في كل يوم ... ولم يعلق بنفسه شيء مما حدث، كالممثل بعد تركه خشبة المسرح، وقد ضُرب عليها وطُعن وجُرح ... وعاد في المساء فوجد زوجته في سريرها، ووجهها في وسادتها وقد بلَّلتها بدموعها ... ولم تتحرك لدخوله ... وحسبها هو نائمة، لولا شهيق خافت، ونشيج غير مرتفع نبَّهه ... فذهب إليها يقول: مالك؟ ... مالك؟

فرفعت رأسها من فوق الوسادة، والتفتت إليه وخيوط العبرات تلمع على خدها ... ولم تُجِب ... فقال لها بحنان: لم أركِ تبكين هكذا منذ زمن بعيد ... أهو أيضًا؟

– من هو؟

– الملازم.

– أي ملازم؟ ... آه ...

لفظتها مستدركة، ثم قالت سريعًا بنبرة عتاب مرة: لا ... لا تحاول التهرب من إساءتك ... بل إساءاتك المتكررة ... إني لا أستطيع أن أحتمل منك أكثر مما تحمَّلت ... هذا كثير عليَّ ... ما من امرأة تتحمَّل هذا من رجل!

– ماذا فعلت يا ناس؟

– أتنكر أنك آلمتني اليوم؟

– تمثيل طبعًا.

– هذه حجة بالية ... إنك الآن صرت تجعل من هذا التمثيل ستارًا تخفي وراءه كرهك لي.

– سبحان الله!

– إنك الآن أمسيت تتحاشى رؤيتي أطول وقت مستطاع، أتنكر ذلك؟ ... إنك تنصرف مبكرًا في الصباح وأنا نائمة، ولا تعود إلا في الغداء ... ثم تخرج فلا أراك إلا في العاشرة أو الحادية عشرة أو منتصف الليل ... إني أسألك وأسأل نفسي: ماذا في وجهي ينفرك، أو في شخصي يبعدك؟

– أهذا معقول؟

– أتُقسِم إنك لا تنفر مني؟

– أُقسِم إن هذا لم يخطر لي على بالٍ.

– لقد كنت ظريفًا معي في أول عهدنا ... شديد العطف عليَّ ... كثير الحنان.

– وأنا الآن كما كنت ... لم أتغير.

– نعم ... أحيانًا ونحن وحدنا في هذه الحجرة تتلطف معي، ولكنك أمام الناس ...

– بالطبع ... أمام الناس يجب أن أكون غير لطيف ... طبقًا للخطة.

– أي خطة؟! ... أتعرف أنها أمست لعبة سمجة؟!

– ولكن! ... هذا لا بد منه.

– كان يسرني تمثيلك أول الأمر ... ولكني الآن أراك جادًّا فيه، ويبدو لي كأنه حقيقة.

– كثرة الممارسة تُعلِّم الإتقان.

– كنت أُفضِّل ألا تتقن هذا الدور ... حتى لا يخالجني شك ... كل كلمة منك الآن تطعنني حقيقة، وتدميني ... يجب أن تحذر قليلًا ... لم يعُد الأمر في نظري تمثيلًا ... لقد اختفت كل لفظة رقيقة ... لماذا لا يمتد إتقان دورك أيضًا إلى ما يسرني؟ ... كنت تقول

لي أمام والدتي «يا سونة» وأحيانًا ... «يا سونتي» ... ماذا حدث؟ لماذا لا أسمع هذا النداء منك اليوم؟

– حصل تغيير في الخطة ... نظرًا لضِيق الوقت.

– ضِيق الوقت؟

– ألا تعرفين؟ ... نحن اليوم في آخر أسبوعنا السابع ... ولم يبقَ أمامنا سوى بضعة أيام لنفترق.

– بهذه السرعة؟ ... أواثق أنك لم تخطئ؟

– اطمئني! ... إني لا أغلط في الحساب ... وكل يوم يمر أعده بكل دقة.

– تعد الأيام لتعتق رقبتك!

– أنا؟!

– لم يبقَ إذن سوى بضعة أيام لنفترق! ... ما أشد سرورك! ... حدثني ماذا ستفعل بعد ذلك اليوم؟ ... وأين ستسكن؟

– لا أدري ... لم أضع بعدُ برنامجًا لحياتي المستقبلة.

– كم أتمنى أن تكون سعيدًا في حياتك المستقبلة ... ترى هل ستذكر بالخير أو بالشر أيامي معك؟

– بالخير طبعًا.

– وهل سيكون شخصي عزيزًا عليك!

– دائمًا.

– أشكرك.

– نامي الآن هادئة البال ... لقد تأخرتِ عن موعد نومك.

وجذب الأغطية، وغطاها جيدًا، ومسَّت كفُّه وجهها عفوًا، فمرغت خدها في يده، كأنها قطة تتمسَّح في صاحبها وأحسَّ دفء ذلك الخد المخملي الأسيل، فسحب يده برفقٍ ... وأطفأ النور في سكون، وذهب إلى فراشه صامتًا.

مرَّت الأيام الباقية مَرًّا سريعًا، في جوٍّ عجيب رهيب ... فهي قليلة الكلام، نادرة الابتسام، بادية الكآبة ... وكأن على وجهها من الحزن المكتوم سحابة ... تجيبه إذا تحدَّث بنظرة فيها أشياء، يفهمها ويعلمها، ويهتز لها في أعماقه كأنها قصيدة بليغة ... وقد شقت عليه مهمته، فجعل يتحامل على نفسه ليستطيع أن يُمعن في إساءته لها أمام والدتها.

وتهيَّأت أخيرًا الظروف التي يُستطاع فيها إصدار ذلك القرار الحاسم، دون أن تتأثر الأم كثيرًا أو تُخدش سمعة الزوجة.

جاءت الليلة الأخيرة ... فتعمد الزوج أن يعود في الهزيع الأخير من الليل، حتى يكون التعب قد أرغمها على النوم، ولكنه وجدها ساهرة مستلقية على ظهرها فوق سريرها، وضوء المصباح على وجهها الشاحب، وكأنها تشخص ببصرها إلى السقف ... فقال لها: عجبًا! ... ألم تنعسي بعدُ؟!

– كنت أنتظر عودتك.

– لو كنت أعلم ذلك لجئتك مبدرًا.

– إنك تعلم ذلك.

– ما هذه اللهجة المكتئبة والوجه الحزين؟

– ليس هناك ما يدعوني إلى الفرح والاغتباط.

– على النقيض ... كان يجب الليلة أن تكوني مسرورة مرحة ... غدًا تكونين حرة، وتستطيعين الزواج ممن تحبين.

– إنك تُعبِّر عن إحساسك أنت.

– لا شأن لكِ بإحساسي من فضلك، إني منذ خلوت بكِ في هذه الحجرة، في ليلتنا الأولى، وأنا لا أهتم إلا بشعورك أنتِ وحدك، وموقفك ومشكلتك؛ وقد عاهدتك على ذلك ... وأظن أني قد بَرَرْتُ بالوعد!

– نعم ... لقد كنت رجلًا شريفًا.

– الحمد لله.

ووقع بينهما صمت عميق ... واضطربت في شفتيها كلمات، لم تجرؤ على إخراجها ... وأخيرًا تشجعت، وقالت: إذن أزِفَت الساعة.

– أعتقد ذلك.

– هل ... هل تحب أن تعرف شعوري الآن ... أو ترى من مصلحتك أن تتجاهله؟ ... ثق أنه يشق على نفسي إحراجك ... أظن من الخير لك أن أسحب كلامي، ولا أسألك شيئًا ... وليكن ما في قلبي مكتومًا، ولا يجب أن أطمع في نُبلك أكثر من ذلك.

– أفصحي وكوني صريحة دائمًا.

– إذا طلقتني فإني أموت.

قالتها سريعًا، وأخفت وجهها في كفيها ... ولم يكن في صدقها خلجة شك ... وكان صوتها صوت الصدق نفسه، لو أنه أُعطي لسانًا ... فجلس زوجها على حافة سريرها،

وأمسك بيدها وقال: اسمعي يا ... سنية! ... من الصعب عليَّ أن أنسى أنكِ أحببتِ شخصًا آخر ... ذلك الحب الذي رأيت بعيني آثاره في وجهك ليلة عُرسي!

– أعلم أنكَ لن تغفر لي ذلك ... وأحب أن تعاقبني العقاب الذي تراه، ولكني أرجوك أن تصدقني إذا قلت لك إن عواطفي نحو ذلك الشخص كانت عواطف طفلة لم تعرف بعدُ ما هو الحب!

– إني لا أُكذِّبك مطلقًا ... غير أني واثق أنكِ تُقدِّرين موقفي.

– نعم ... أُقدِّر موقفكَ ... وأدرك ما يجول بخاطركَ ... وأعرف السؤال الذي يمنعك أدبك من أن تسألني إياه ... ولكن أُقسم لك إنه لم تكن بيني وبين ذلك الشخص علاقة تُخجل أو صلة تُشين ... كل ما في الأمر أنه كان جارنا يوم كُنَّا نقطن في حي «العباسية» وكنت ككل فتاة يُبهرها ذلك الزي العسكري والقوام المشوق، وكان يُحييني وأُحييه كلما تقابلنا في الطريق، وكان يحادثني في التليفون ... ولكني لم أخرج معه قط ... ولم نجتمع على انفراد ... أؤكد لكَ ذلك وأحلف بكل يمين، وسيأتي الوقت الذي تتحقق فيه صدق قولي.

– إني أرى الصدق في عينيكِ ... وهذا يكفيني ... ولكني أخاف من أمر آخر ... حقيقة شعورك نحوي ... هل أنتِ واثقة؟

– كل الثقة.

– كيف تقطعين بذلك؟

– إنك ترتاب، لأنك لا تعرف الحب ... ولكني أخبرك ما هو ... إنه ليس في تلك البهرة العاجلة التي تخطف أبصارنا، ولا الهزة المفاجئة التي ترج قلوبنا ... ولكنه شيء يتكون على مهلٍ كالجنين ... إنه يُنسَج فتلة فتلة، ويُربَط عقدة عقدة، كشغل «التريكو» ... هكذا يتوثق الرباط بين قلبين ... مهما تشك في قولي ... فإني لن أستطيع التخلي أبدًا عنكَ ... إنك ضروري لي ... بكل حسناتك وسيئاتك ... إنك لازم لي، بمجرد وجودك في هذه الحجرة ... أسمع سُعالك، ويؤرقني غيابك ... وتسرني عودتك، ولو بعد منتصف الليل، ويضحكني بحثك في الصباح عن جواربك تحت السجاجيد، وعن حذائك تحت الأمتعة، ووجهك المُلطخ بالصابون وأنت تحلق ... وجرحك لوجهك بالموسى، ونسيانك منديلك قبل خروجك ... واعتمادك عليَّ لأُذكِّرك بمحفظتك الملقاة على منضدتي ... وابتسامتك الساذجة اللذيذة، وأنا أتمطى في الصباح وأتثاءب، وغضبك المفتعل وصياحك التمثيلي أمام والدتي، وكلامك لي عن عملك كأني أفهم دقائقه ... ثم تذكُّرك فجأة أني لست حقيقة لك، فتبدي معي التكلُّف ... ثم تنسى فتتبسَّط وتُدللني وتلاطفني ... وتطري ثوبي الجديد، ثم عاداتك في الطعام

عرفتها وتعلمتها ... فالخبز يجب أن يُسخن ويحمر، والأرز يؤكل مع الخضر ... حتى نومك ... عرفت في أي ساعة من الليل تكون على جنبك الأيسر ... كيف تريد أن أتخلى عن كل هذا؟ ... تلك تفاهات صغيرة، ولكنها هي الحلقات الدقيقة الوثيقة في «تريكو» الحب الزوجي.

– «تريكو»! ... يا له من تعبير! ... لا تنسي الإبرة الطويلة من فضلك! ... إنها خطيرة، وهي في يدكِ أنتِ!

فضحكت ضحكة رقيقة ... ثم قالت بنبرة جدٍّ: لا تخشَ شيئًا مني أبدًا.

فأطرق مليًّا ... ثم رفع رأسه وقال: سونة ... دعي لي وقتًا للتفكير!

– لم أسمع منك لفظ «سونة» منذ دهور! ... لِمَ كل هذا الخوف مني؟

– ليس منكِ ... ولكن على كنوزي ... كنوز البخيل التي ادخرها في قلبه ... نامي يا «سونة» الآن، وفي الصباح نفكر وقد يأتي الفرج.

وغطاها كما اعتاد أن يفعل، وأطفأ النور، وذهب إلى فراشه الأرضي في ركن الحجرة.

ولم يكد يأوي إليه، ويسحب غطاءه عليه حتى سمع صوت «سونة» تثب من سريرها ... وإذا هي قد دلفت إلى فراشه، واندسَّت تحت الغطاء إلى جواره والتصقت به والتحمت بجسده وهي تقول: أنت زوجي أمام الله والناس وقلبي، ولن تفلت من بين ذراعي أبدًا.

وطوقته وضمته ... وإذا هو يجد نفسه في مكان الوسادة التي اعتادت أن تحتضنها ليلًا.

وكانت تلك هي ليلة عرسهما، ولعلها أول مرة في تاريخ الزواج ... يهجر فيها العروسان سرير الزفاف، ليفترشا الأرض متعانقين.

طريد الفردوس

– سنذهب إلى الفردوس.

– بعد عُمر طويل ... إن شاء الله!

– الآن.

قالها صاحبي المرِح، وهو يدخل بي ذلك المساء حانة من حانات القاهرة، كُتِب على بابها بلون أخضر «بار الفردوس».

وأجلسني من الفور وجلس إلى مائدة، يبدو أنها محجوزة له، موقوفة عليه ... وأدار بصره في المكان وحيَّا بنظرة صاحب البار وإخوانه، وبابتسامة حور الحان ووِلدانه ... وصفق طالبًا الشراب وهو يتلو: قال الله تعالى: وما الدنيا إلا متاع ...

– أكمل الآية من فضلك.

– لم يتسع فؤادي لأكثر من هذه الجملة.

وأقْبَل الساقي بالأقداح، وأراد صاحبي أن يقدم إليَّ قدحًا، فقلت له: ذنوبي قد فاضت بها كأسي فلا حاجة بي أن أزيد عليها قدح خمر ... إذا أردت أن تكرمني فاطلب لي عشاء!

فأذعن لرغبتي ... وطلب لي الطعام، فطفقت ألتهم، وجعل هو يرشف من كأسه ... ويقول: يعجبني أن يعرف الإنسان أن له ذنوبًا ... إذا عرفنا ذنوبنا عرفنا حدودنا ... وإذا عرفنا حدودنا لزمناها وأبينا أن نتعداها ... وها أنت ذا قد رفضت أن تتعدى حدودك! ... سأقص عليك قصة ثِق أنها ليست من وحي شرابي، لقد وقعتْ بالفعل وفي هذا المكان بالذات ... وإذا لم تصدقني فسل كل هؤلاء الحاضرين ... ولكنك تعرف أني لم أكذب عليك يومًا.

فلم يستطع فمي المملوء بالطعام أن يجيب ... فاكتفيت بهز رأسي علامة المصادقة ... فمضى الصديق يروي قصته: لست أذكر هل سبق لي أن حدَّثتك عن ذلك الشيخ الصالح

الذي يتبرك به أهل بلدنا في الريف الشيخ عليش ... رجل وُلد بعينين في رأسه، ولكنه لم يرَ بهما غير السماء ... ويبدو لنا أنه منذ نزل من بطن أمه، وضعوه في إناء من زجاج وختموا عليه، حتى لا ينفُذ إليه هواء البشر، ولا تنسل إليه جرثومة من جراثيم الشر ... رجل لا يعرف ما هو الذنب، ولا السيئة ولا الزلة ولا المعصية ... ما كنَّا نبصره إلا ساجدًا أو هائمًا في ملكوت الله، لا يفطن إلى نفسه ولا إلى من حوله ... ولا يُفرق بين الناس والهوام ... لم يؤذِ إنسانًا ولا بعوضة، ولا يملك من دنياه غير مسبحة من حصى، وغير موسى يحلق بها شعر رأسه، وغير عمامته العتيقة، وأطماره المهملة، ولحيته المرسلة ... هكذا عاش، يأكل من عُشب الأرض أحيانًا كأنه دابة، ويقضم ما يُلقى في حجره أحيانًا من كسرات المحسنين على غفلة منه أو سهوة، فهو لا يسأل أحدًا شيئًا ... ولا يطلب إلى الدنيا متاعًا ... إلى أن مات الشيخ ذات يوم ولم يبلغ الأربعين ... وكنت بالمصادفة في الريف، أبصرته بعيني مع غيري من الناس، وهو مُلقى في مكانه، مُسجى على الغبراء، وقد طُرحت عنه عمامته فبدا رأسه الحليق كالصخرة اللامعة الملساء، وسقطت إلى جانبه المسبحة، وظهرت من حزامه يد الموسى ... وسكنت حركة لحيته التي ما كانت تهتز إلا لذكر الله ... وهبطت على الناس رحمة به، فأجمعوا على أن يبنوا عليه ضريحًا ... وما تركتُ الريف حتى كان الضريح قائمًا على جثمان الشيخ عليش، وقد ساهمت بنصيبي في إقامته، وقلبي جياش بالتأثر، ونفسي فياضة بالخشوع ... وعُدت إلى القاهرة، وعاد إليَّ ضعفي، قاتله الله ... وجذبتني قدماي إلى مكاني المألوف من هذه الحانة ... فما نحن إلا بشر، لم يُكتَب لنا السمو على أنفسنا غير لحظات ... ومرَّت أيام ... وإذا بي أسمع جلبة من مكاني هذا، فاستدرتُ فأبصرتُ على هذه المائدة من خلفي شيخًا رثَّ الهيئة قد أحاط به خدم المحل، يحاورونه ويحرجونه ويُفهمونه أن الموضع ليس موضعه، وأن من الخير له أن ينصرف بالحسنى، فتتبعتُ المحاورة، ثم سددت إلى الشيخ البصر ... ويا لهول ما رأيت! ... كلا ... إنه ليس الوهم ولا السُّكْر ولا الجنون ... بل هو الشيخ عليش بشخصه ولحمه ودمه وعمامته وأسماله ومسبحته وموساه ... وفركتُ عيني وطلبت فنجانًا من قهوة ثقيلة أستعين بها على اليقظة ... ثم سألت صاحب الحانة أن يمتحن عقلي ... وطلبت إلى غانية من حِسان المكان أن تفحص صحوي، فنظرا إليَّ بريبة أول الأمر، ولكنهما خضعا لإصراري، ولم أتركهما حتى أقرَّا واعترفا أني ثائب إلى رشدي، مالك لصوابي ... فتقدمتُ إلى الشيخ، ونحيتُ عنه الخدم، وقلت له بصوت متهدج: ما اسمك أيها الشيخ؟

فما راعني إلا قوله، بجدٍّ وصراحة وثباتٍ: عليش!

وكان الصوت صوته، والنبرة نبرته، فكدتُ أُجَن، ومضيت أستفسر منه: الشيخ عليش من بلدة …

فذكر لي اسم البلدة والقرية من ذلك الريف بما لم يدع في نفسي ذرة من شك.

– ساكن الضريح الذي ساهمت في …

– نعم.

– وكيف تركت ضريحك وجئت ها هنا؟ … لقد أبصرتك بعيني رأسي وأنت ميت.

– نعم … لقد مت حقًّا … وأردت أن أدخل الفردوس ولكنهم طردوني!

– الفردوس؟! … أيمكن أن يغلط الإنسان إلى هذا الحد؟ … ألا تستطيع أيها الشيخ الورِع أن تُفرق بين الفردوس الذي في السماء، و«بار» الفردوس الذي في شارع عماد الدين؟!

– لا … لم يحصل مني غلط! … لقد صعدتُ فعلًا إلى السماء، وطرقت باب الجنة، فمنعني حارسها من الدخول، وأعلن إليَّ أني لست من أهلها، ونصح لي أن أطرق باب النار، فصدعت بالأمر دهشًا حزينًا وطرقت باب النار، فمنعني حارسها أيضًا من الدخول، وأعلن إليَّ أني لست كذلك من أهلها … فحِرتُ في أمري، وصحتُ شاكيًا … سائلًا الهداية، طالبًا البت في مصيري، وأخيرًا قالوا لي: ليس في السماء موضع أُوضع فيه … لأن الدنيا معركة بين الخير والشر، ومبارزة بين الفضيلة والرذيلة تقوم في نفس الإنسان، فإذا انتصر الخير دخل الإنسان مملكة الخير وهي الفردوس، وإذا انتصر الشر دخل مملكة الشر وهي الجحيم … أما أنا فلم تقم في نفسي معركة، ولم يحدث انتصار، ولم أواجه الشر لأغالبه … فأنا في نظرهم كالفارِّ من الميدان، أو الهارب من الامتحان، فكيف يجوز لهم أن يثيبوني أو يعاقبوني، وأنا لم أُعرِّض نفسي لأحداث الحياة، حتى يظهر معدنها الخيِّر من معدنها الشرير؟ … إني في نظرهم غشاش مخادع، لجأ إلى أيسر السُّبل لينال الجائزة دون أن يواجه الخطر! … وانتهى أمرهم إلى إعلان هذا القرار في أمري: وهو إلغاء حياتي الأولى واعتبارها كأن لم تكن، وطردي من السماء، لأعيش مرة أخرى على الأرض، بنفس جسمي وروحي وكياني الأول، على أن أتقدم للامتحان العسير وأواجه الشر وأنازل الرذيلة ليعرفوا بعد ذلك من أمري ما ظهر وما استتر … وألقوا بي إلى الدنيا من جديد بعين ثيابي وهيئتي، فوقعت على القاهرة، وأنا لم أزل فريسة حزني ويأسي من ضياع جنتي، أُرَدِّد كالمجنون من غير وعي: «الفردوس … الفردوس!» فدفعني أحد المارة إلى هذا المكان قائلًا لي: «ها هو

ذا الفردوس!» فدخلت، وإذا بي أجد فيه أيضًا من يطردني منه ... حتى أنقذتني أنت أيها الرجل الطيب.

عجبتُ لقصة الشيخ، وأخذتني به شفقة ... وقلت له: لا عليك أيها الشيخ المبروك ... ما حدث لك لا يحدث لأي إنسان ... إنما هي كرامة من كرامات أولياء الله؛ أن يسمح لبشر أن يعيش مرتين في هذه الدنيا.

ثم أنهضته برفقٍ وأجلسته باحترامٍ إلى مائدتي، وقلت له: والآن، ماذا تنوي أن تصنع في حياتك الجديدة؟

– أواجه الشر ... إذا أردت أن تخدمني أيها الرجل الطيب فدلني أين أجد الشر.

فضحكتُ قليلًا، وقلت: هذا شيء بسيط ... وإن كنت شخصيًّا لست بالدليل البارع في هذا السبيل ... ولكني أستطيع على كل حالٍ أن أُعرفك بالشر في أَهْوَن مظاهره.

وصفقت للساقي فحضر ... فقلت له: زجاجة شمبانيا لفضيلة الشيخ!

فحملق «الجرسون» في وجهي ثم تنبَّه وأسرع يُلبي الأمر ولم يلبث أن عاد بالزجاجة غارقة في إناء الثلج، وفَضَّ خاتمها الفضي، فانطلقتْ السدادة كأنها مدفع ... نبَّه إلينا حِسان الحانة ... فصوَّبن إلينا نظرات دهشة مذهولة، أتبعنها ببسمات ثم ضحكات ... خافتة مكتومة لهذا المنظر الفريد في الدهر.

– في صحتك!

ورفعت كأسي وأشرت إليه أن يرفع كأسه ... فرفعها بيدٍ مرتجفة ورشف منها بحذرٍ كأنما يرشف سُمًّا ... ولم يدر بخلدي قط أني جرعته حقًّا سُمًّا سيسري في حياته الجديدة، ويفعل بها الأفاعيل ... ولم أفطن للأمر إلا بعد أن جرع الشيخ كأسه الثالثة ... وثمل وانقلب يغني بالتواشيح الدينية والمدائح النبوية، ثم يُسبِّح بأسماء الله على مسبحته بصوت السكارى ... وهذا كل ما يعرف طبعًا من غناء دفعته إليه النشوة ... فبذلتُ جهدًا في إسكاته، خشية الفضيحة ... وصيانة لمقام الدين ونحن في هذا المجال ... فاقتنع الشيخ، وترك الغناء بهذه الأشياء المقدسة ... وتلفَّت ذات اليمين وذات اليسار فلمح غانية ظريفة فتنحنح وقال: أعطِني هذه الحورية!

فأومأتُ إليها، فأقبلت وجلست وأوصيتها بمداعبة الشيخ، فداعبَته ولاعبَته حتى ذهبت ببقية لُبِّه ... وخطرَ له وهو في أوج انشراحه وترنُّحه أن يسألني عن اسمي، فراوغته، فقال: ولماذا أسألك؟ ... أوَتظنني أجهلك؟

– أتعرفني؟

طبعًا ... أنت رضوان ... الذي أدخلني هذا الفردوس بحوره العين ...!

وقهقه ضاحكًا، ومال على الغانية يضمها ... وانتصف الليل ثم دقت الساعة الواحدة، وأقفرت الحانة، وأراد صاحبها أن يغلقها ... وهنا راحت السكرة وجاءت الفكرة ... ماذا أنا صانع بهذا الشيخ صاحب الكرامات؟ ... وأين يكون مقره ومقامه؟ ... ليس من المعقول أن أسحبه معي أو أذهب به إلى منزلي ... وليس من المعقول أيضًا أن أرده إلى ريفه وأعيده إلى ضريحه! ... ما الحل؟ ... أين يبيت ليله؟

وتأمَّلت الأمر مليًّا ... ثم قلت في نفسي: «ولماذا أتعب نفسي به؟ ... ما شأني بهذا الشيخ وليِّ الله؟ ... هل عيَّنني أحد ولي أمره؟ ... وهل قذفوا به من السماء لأحمله أنا على ظهري؟»

وهداني الله إلى وسيلة ... أن أنقد الغانية مبلغًا لتخرجني من المأزق، وتُبقيه معها ريثما أنصرف بسلام ... ولها بعد ذلك أن تئويه أو تلقيه.

وتم لي ما دبرت، وأنقذتني الغانية الكريمة، وانصرفتُ إلى بيتي، وانقطعتُ عن هذه الحانة أسبوعًا، خشية أن أُصادف الشيخ، فيتعلق بي ويرغمني على مصاحبته ومسامرته وتحمُّل تبعته وشأنه وهمه ومستقبله.

ومضى الأسبوع فلم أجازف بالذهاب ... وآثرت الاتصال بصاحب الحانة بالتليفون ... فما كاد يسمع صوتي حتى صاح بي قائلًا: ما هذه المصيبة التي نزلت علينا؟!

– أي مصيبة؟

– صاحبك الشيخ ... إنه لا يريد أن يترك المحل لا ليلًا ولا نهارًا ... وكلما ناقشناه صاح فينا: لن أذهب أبدًا ... المؤمن لا يُطرد من الفردوس مرتين!

– وماذا صنعتم به؟

– لا شيء ... صنعنا له صندوقًا لمسح الأحذية، وحلقنا له ذقنه، وألبسناه جلبابًا ... وألحقناه بخدمة المحل، ينظفه بالنهار، ويُلمع أحذية الزبائن بالليل!

– فكرة نيِّرة جدًّا.

قُلتها بكل إخلاص، وكل إعجاب ... ولكن هذا لم يمنعني من تعمُّد الانقطاع عن الحانة زمنًا آخر، حتى يلتصق الشيخ عليش بصفته الجديدة تمام الالتصاق، وينسى الليلة المعهودة تمام النسيان، فلا يلحقني من لُقياه متاعب.

ومرَّت أعوام ثلاثة ... دون أن أضع قدمي في تلك الحانة ... لا تعمدًا، بل طاعة لأمر القدر ... أو قُل أمر الحكومة، فقد دسَّ لي الحاسدون النمَّامون لدى رئيسي الجديد «الغشيم»

اللئيم، واتهموني ظلمًا بأني قليل العمل، كثير الكسل، مدمن على السُّكْر والعربدة وارتياد الحانات ... فما راعني ذات صباح إلا أمر من الوزارة بنقلي إلى أقاصي الصعيد ... فمكثت هناك إلى أن أَذِن الله والمساعي المثمرة بعودتي.

فما إن استقر بي الحال في عملي الجديد بالمصلحة، حتى شعرت بالحنين إلى حياتي الماضية ... ونشطت ذات مساء أقصد هذه الحانة، وكنت قد نسيت الشيخ عليش وما جرى له بالتمام ... فدخلت وأجَلْتُ النظر في المكان، فلم أجد شيئًا على حاله القديم ... كل شيء قد تغير: مائدتي المختارة، والغانيات والساقون و«البارمان»، وحتى مدير المحل ... لم يبقَ شيء كما كان سوى اسم الحانة، فهو هو دائمًا لم يتغير: «بار الفردوس»!

وقفت لحظة حائرًا لا أدري أين أجلس ... حتى لمحت غانية من بنات الهوى، قد اعتلت البار ... وهي بمفردها تُدخن، والدخان مُغيم حول وجهها الأبيض المستدير كأنه السحاب حول قمر ... فاتجهتُ إليها، ووقفت بجوارها وطلبت لها كأسًا ولي أخرى، وأخذت أُغازلها بكلمات محفوظة مما يناسب المقام ... إلى أن قطع الحديث ماسح أحذية، يهمس قربي: «تمسح يا بك»! ... فارتجفتُ ونظرت إليه، وتذكرت فجأة الشيخ عليش ... وقلت في نفسي: ماذا أنا فاعل لو ظهر الشيخ بصندوقه، وماذا أنا قائل لو جذب حذائي ليمسحه؟ ... أأدفعه إليه، أم آباه عليه ... ترفقًا به واحترامًا له؟!

ورفعت الغانية قدحها إلى شفتيها، وهي تنظر إلى باب الحانة قائلة لي بقلقٍ: لن أقف طويلًا معك ... إني أخاف أن يحضر فيراني ... إنه شديد الغيرة!

– عمن تتكلمين؟

– علوي ... علوي بك!

– علوي بك! ... من هذا؟

فظهر على وجهها الاستغراب، والتفتت تُحدق في وجهي وهي تقول: عجبًا! ... ألم تسمع بهذا الاسم؟ ... كل شارع عماد الدين يعرف من هو علوي! ... يظهر أنها أول مرة تدخل فيها البارات والكباريهات.

– حقًّا ... منذ أكثر من ثلاثة أعوام!

– لقد اقترب موعد مجيئه ... أنصحك أن تبتعد عني بمجرد إشارتي لك بالابتعاد ... وإلا فأنا لست مسئولة عن منخارك أو أُذنيك إذا أطاح بها حد الموسى!

– يا مغيث!

قُلتها هامسًا مرتعدًا ... وأنا أنظر إلى الباب ... ثم خطر لي أن أبتعد بكأسي عن المرأة منذ الساعة، دون انتظار للمقدر، والله يُغنينا عن قُربها المحفوف بالمخاطر ... ولكني خشيتُ أن أبدو على هذا الجُبن أمام امرأة، لعلها ما قصدتْ إلا العبث بي والمُزاح معي ... وتجلدت قليلًا، واستأنفت الحديث والمغازلة ... وإذا هي فجأة تلتفت إلى الباب، كالقطة التي أحسَّت بغريزتها حركة ... ثم أدارت لي ظهرها، ونأت عني بقدحها ... فأدركت أن صاحبها قد حضر ... ولقد شعرت بالفعل كأن الحانة كلها قد مسَّتها شرارة كهرباء ... فقد ساد بغتة صمت لدخول ذلك الرجل، شمل الحاضرين من زبائن وساقين إلى مدير المحل الجالس فوق المنصة ... فرفعت عيني بحذرٍ وأدبٍ أفحص ذلك الذي يسمونه «علوي» ... فرأيت رجلًا أنيق الملبس، خفيف الشارب، لامع الشعر، يتضوع منه عِطر الكلونيا الثمين ... وخاطب الرجل بلهجة الأمر «البارمان» فخُيِّل إليَّ أني أعرف هذا الصوت، واحتلت لأنظر إلى وجهه مليًّا ... فإذا الدهش يعقد لساني: لم يكن علوي بك هذا غير الشيخ عليش في قالب جديد!

ولم أدرِ ماذا أصنع عندئذٍ ... هل أحادثه؟ ... هل أنسحب من المكان دون أن أُشعره بوجودي؟ ... وتساءلت: أترضيه مقابلتي اليوم أم تزعجه؟ ... ليس لي أن أبدأ على أي حال بشيء ... ولكن الظروف سرعان ما تدخلت ... فقد أراد هو أن يُخرج من جيبه الخلفي علبة السجاير ... فصدمتني يده على غير انتباه منه ... فالتفت نحوي ... وتقابلت عينانا فحملق في وجهي لحظة، كمن يُراجع ذاكرته ... ثم ما لبث أن انفرجت شفتاه عن صيحة أذهلت الحاضرين: رضوان!

ثم فتح ذراعيه، وعانقني عناقًا طويلًا ... فرحًا كالطفل مبتهجًا كمن لقي لقية ... وهو يردد: «رضوان ... صديقي رضوان!» ... وقبل أن أفتح فمي بحرفٍ، جذبني من يدي وقادني إلى مائدة في طرف الحانة كأنما يريد أن ينفرد ويستأثر بفرحة العثور عليَّ ... وصفق ينادي «الجرسون»: زجاجة شمبانيا!

– هكذا سريعًا؟!

– دعني أرُد إليك بعض دَيْنِك! أين كنت طول هذا الزمن؟ ... لقد بحثت عنك في كل مكان ... ولكنك اختفيت فجأة ... ها أنا ذا أعثر عليك الآن فاتركني أرد إليك الحسنة بعشرة أمثالها!

– لست أدري هل تعتبر فعلتي حسنة؟!

قلتها كالمخاطب لنفسي، وأنا أجيل بصري المشدوه في كل جزء من أجزاء هذا الكائن الذي كان يُسمَّى فيما مضى «الشيخ عليش» ... كلا، إن التغيُّر الذي طرأ عليه لا يمكن

أن يُسمَّى تغيُّرًا ولا تطورًا ولا انقلابًا ... إنه شيء لم يوجد له بعدُ اسم ... الوجه وجهه والصوت صوته، ولكن اللهجة التي بها يتحدث، والطريقة التي بها يشرب، والأسلوب الذي به يسمر، والعقل الذي به يفكر، والنفس التي بها يشعر ... كل هذه أشياء أراها لأول مرة ... على أن عيني الفاحصة دلَّتني على شيء عنده سبق أن رأيته ... طرف الموسى البارز هذه المرة من جيب الصدر، خلف منديله الحريري المتهدل ... ولم يدعني أستغرق في دهشتي وتأملي ... فقد رفع كأسه قائلًا: في صحة رضوان!

فرفعت قدحي!

– في صحة علوي!

وشرب كأسه كلها في جرعة واحدة ... ثم التفت إليَّ قائلًا: أرى أن عطشك الحقيقي هو إلى معرفة شيء عن صديقك الجديد «علوي»!

– طبعًا!

فأشار إلى ماسح الأحذية الذي يجوس بصندوقه خلال المكان وقال: لقد بدأ هكذا.

ثم أخذ صوته يخفت كلما أوغل في الحديث، كأنما يُدلي باعتراف أو يسعى إلى مخاطبة النفس ... ثلاثة أشهر أو أربعة حمل فيها صندوق الأحذية وتعلَّم خلالها النشل والمقامرة والمغامرة وخدمة الغواني ... إلى أن تجمَّع في يده مبلغ من المال ... فطرح صندوقه وجلبابه، واشترى بذلة نظيفة وصار أفنديًا ... ولكن صلته بالغانيات وحاجتهن إلى الحماية جعلتا منه في نظرهن رجلًا لا غِنى لهن عنه ... ولقد تبيَّن له بعد قليل أن هذا عمل مريح ... فقد كثر عدد المحتاجات إلى يده وحمايته ... وشاع عنه ذلك في هذه البيئات، وشاهد الناس من خوارق براعته في استخدام الموسى ما جعلهم يحسبون لغضبه حسابًا ... وامتد نفوذه إلى أكثر البارات والحانات، بمن فيها من نساء وزبائن وساقين ... فهو الآن يرتاد أغلب أماكن اللهو، ويطلب ما يريد، دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض أو المطالبة ... بل هو الذي يتقاضى من أصحابها الإتاوات والمرتبات لضمان الهدوء في هذه المحال ... وهو أحيانًا يشتط في الطلب، ويركب إلى التهديد وإحداث الشغب فيذعن من يذعن، ويلجأ البعض إلى بيع حاناتهم هربًا منه وضيقًا ... كما حدث للمالك السابق لبار «الفردوس» ... هذا هو علوي ... وهذه حياته ... رواها بلهجة سريعة مقتضبة.

ثم التفت إليَّ قائلًا: والآن ما رأيك؟

فألجمتني الحيرة ماذا أقول؟ ... وكيف أمسه بنقدٍ وهو شارب، والموسى في جيبه ... ولكني أجبته برفقٍ: لقد كنت هبطت الأرض لتواجه الشر فيما أذكر وتنازل الرذيلة.

– ماذا تقول؟

– ألا تذكر أنهم أنزلوك إلى الأرض من جديد لتُنازل الشر؟

– من الغريب أنني نسيت ذلك ... لقد استغرقتني حياتي وجرفتني، فلم أفطن إلى ما جئت له.

أَلم تصادف الشر؟ ... أَلم ترَ الرذيلة؟

– أين؟

قالها كالتائه أو المحدق في الظلام ... فألقيت نظرة إلى الزجاجات الثلاث التي أفرغها في جوفه، منذ جلوسنا ... ثم تأملت حاله، فلم أجد للشراب أثرًا في صوابه ... هو إذن صادق في إحساسه ... لقد جرفه التيار إلى حد ألهاه حتى عن سؤال نفسه «في أي طريق يسير؟»... يا لها من هزيمة! ... إنه لم يثبت للنزال، لقد تلاشى الشيخ عليش، وتلاشت عمامته ومسبحته بلمسة خفيفة من ظل الرذيلة ... لقد رفع في الميدان الراية البيضاء دون وعي منه، قبل أن يفطن حتى إلى وجود عدو ومعركة!

وأطرق الرجل طويلًا ... ثم قال بذلك الصوت الخافت الصاعد من أعماق نفسه: في يدي المال والسطوة والمتعة ... ولكني مخلوق شقي!

– أَبدأ ضميرك يُعذبك؟

– ضميري؟! أعرف الآن ما هو ... أتستطيع أن تجيد الإصغاء إليَّ ... لأخبرك؟

– نعم ... أخبرني بكل شيء ... إني أحس كأني مسئول ... فقاطعني بتصفيقة قوية ينادي بها الساقي وهو يصيح: زجاجة أخرى!

ولكن مدير المحل أومأ إلى «الجرسون» أن يتغاضى ويتصامم، وصفق علوي مرة ثانية وثالثة ... فلم يجد مُلبيًا لندائه، فأطلق صيحة مدوية ضجَّ بها المكان، فحضر إليه مدير المحل يقول: علوي بك ... ألا تكفي ثلاث زجاجات من الشمبانيا الفاخرة؟ ... هذا كثير!

– الكثير أُذناك اللتان لا تسمعان طلبي ... سأريك أن واحدة منهما تكفيك لسماعي!

وفي مثل لمح البصر، استلَّ موساه من جيب صدره ... وقذف مدير المحل ... وكنت لحسن الطالع قد فطنتُ لقصد صاحبي، فدفعت بكل قواي مدير المحل بعيدًا عن مرمى النصل، فنجا واستقرت الموسى في خشبة المنصة! ... وهاجت الحانة وماجت، ولكن ما من أحدٍ تحرك من مكانه، فقد كانت لعلوي هيبة ... فتسمَّر الحاضرون في مكانهم رهبة أو وهمًا ... وقام هو يمشي على مهلٍ بجلالٍ إلى المنصة، فنزع عنها نصله البراق وطواه ودسه خلف منديله، وأراد أن يعود إلى مجلسه من الخوان، ولكني أمسكتُ بذراعه وسألته بلطفٍ

أن يخرج معي من الحانة، لنستأنف حديثنا في هواء الطريق الطلق؛ فأذعن مرغمًا لرجائي وخرج معي ... وهو يهمس بغضبٍ مكتومٍ: لا يستطيع أحد أن يخرجني قهرًا من هذا «الفردوس»!

– قهرًا لا ... لقد خرجت بإرادتك!

قلتها له بلهجة التزلف والمداراة خشية من بوادره، وتهدئة لثائره، ثم سألته ونحن في الشارع سائران أن يمضي في حديثه، وأن يخبرني بما كان يزمع إخباري به ... فنظر في ساعة ذهبية بمعصمه، وقال: لا أستطيع الآن ... غدًا إذا شئت ... وموعدنا في عين هذا المكان.

– عين هذا البار؟! ... أوهذا ممكن بعد الذي حصل؟

– ماذا؟ ... هذا يحصل كل يوم!

لم أتمكَّن من مقابلته في الموعد المحدد ... فقد دُعيتُ إلى عُرس أحد أقربائي في الريف ... فسافرت ولبثت هناك بضعة أيام، رأيت فيها العجب: ضريح الشيخ عليش أصبح كعبة يحج إليها مئات الناس من القرى المجاورة، يحملون إليه الشموع أيام الأسواق ويوفون بالنذور ... وينوِّهون بكراماته العديدة في إبراء الأمراض وقضاء الحاجات.

ولقد أبصرت امرأة ترفع طفلها العليل بيديها ليلمس شباك الضريح، ويتلقَّى من مسِّ حديده البركة، وهي تصيح من أعماق قلبها: يا شيخ عليش! ... يا ولي الله يا ساكن الفردوس!

نظرة ... مدد ... نظرة ... مدد!

ولقد سمعت رجلًا يهزُّ باب الضريح صائحًا: يا شيخ عليش! ... يا حليق الرأس ... خد بيدي، واشفِ وجع رأسي!

أبصرت ذلك وسمعته كثيرًا من أفواه كثيرة ... وقلت في نفسي: من ذا يستطيع أن يقول في هذه الجموع المؤمنة الآملة أن الشيخ عليش لا يوجد إلا في بار «الفردوس» بشارع عماد الدين، وأن من يدعونه وليَّ الله حليق الرأس ليس سوى «بلطجي» يحلق الآن الأنوف والآذان بموساه من رءوس الناس!

لو قلت لهم هذا القول لرجموني بالحجارة، وصاحوا بي: اقتلوا الكافر! ... أهلكوا الكافر!

على أن العجيب في الأمر أن كثيرًا من هؤلاء المرضى الذين يزورون الضريح يُشفَون حقًّا ... ولقد أكد لي ذلك بعض من يُوثَق بقولهم من جلة أقربائي في الريف.

ولقد فكرت في ذلك قليلًا، فزال عني العجب: يا لهؤلاء الناس! … إنهم هم الذين يشفون أنفسهم بأنفسهم وهم لا يعلمون … إن الناس لا تريد أبدًا أن تُصدق القوة الخفية الكامنة في أعماقهم … ولا بد أن يخترع لهم وهمهم قوة خارجية ينسبون إليها ما يأتون هم من معجزات.

وتخيلت حال الشيخ عليش — أو علوي بك — لو أخبرته بأمر هذه الكرامات التي تفيض على الجموع من نوافذ ضريحه … بينما هو غارق في خمور البارات والحانات … ولكني رأيت أن أمسك عن إِخْباره وأن ألزم الصمت المطبق، رحمة بجيوب العباد … فإنه لو عَلِم، لحضر إلى الريف واستغل هذا المنجم الذي لا ينضب وحسبي ما اقترفته من إثم ما زال يؤرق ضميري، إذ دفعته إلى طريق الموبقة أول ليلة … فلا ينبغي أن أدفعه إلى طريق إثم جديد … فليبقَ اسمه منبع رحمة للناس وليذهب جسمه إلى الجحيم.

عُدت إلى القاهرة … وذهبت في المساء إلى حانة «الفردوس» فتلقاني مدير المحل بالترحيب، وشكر لي موقفي وتدخلي في تلك الليلة التي هاج فيها علوي وقذفه بالموسى … وقال لي إنه كان ينوي أن يخبر البوليس، وأن يجازف ويتعرض لانتقام علوي … فهو يعلم أنه لن يتركه في هدوء إذا هو بلَّغ عنه … فهو له أعوان … وأنه سيتعقبه بالويل ولو بعد أعوام من سجنه … لو سُجن … ولكنه آثر ضبط النفس، والتغاضي عن الحادث … لأنه يعرف علوي منذ زمن، ويعلم أنه سريع الغضب سريع الصفاء … والخير في استئناف الصِّلات الودية مع مثله … غير أنه يلاحظ عليه في الأسابيع الأخيرة تغيُّرًا غريبًا … وليس هو وحده الذي رأى ذلك منه … غانيات الحانة على الخصوص وهن أدق إحساسًا بما يشغل نفسه في هذه الأيام … ولقد سألته: أَحادثَ علوي أحدًا بعد تلك الليلة؟ … فأخبرني وهو دهش أن علوي لم يحضر إلى الحانة منذ خروجه معي تلك الليلة!

وعبثًا حاولت بعد ذلك العثور على علوي … بحثت عنه في جميع البارات والكباريهات.

وأخيرًا قال لي أحد خدم «البار» إنه لمح ذات مرة شخصًا يشبهه جالسًا أمام مقهى وصفه لي في حي السيدة زينب.

فذهبت إلى ذلك المقهى … فإذا بي أجد علوي قاعدًا بمفرده، يتأمل شيئًا لا أتبيَّنه فدنوت منه، ولكنه لم يفطن إليَّ حتى وضعت يدي على كتفه … فأفاق في شبه رعدة ونظر إليَّ وقال: أنت؟ ماذا أتى بك إلى هنا؟

– وأنت … ما الذي أتى بك إلى هنا؟

– اجلس.

قالها وهو يهيئ لي كرسيًّا بجواره، ونادى «الجرسون» وطلب لي فنجانًا من القهوة ... وأطرق طويلًا، ثم رفع رأسه وقال بصوتٍ كالهمس: يجب أن أخبرك.

– بكل ما يقوم في نفسك!

– نعم ... لن أخفي عنك شيئًا مما في نفسي ... إني أحب ... وعندما ألفظ أنا هذه الكلمة، فاعلم أن أمرًا عظيمًا قد وقع ... فأنا من أكثر الناس صلة ومعرفة بالنساء، ومن أكثر الرجال متعة وامتلاكًا للحِسان والغانيات والجميلات ... ولكن الذي حدث لي قَلَبَ كياني وأنبت في قلبي مشاعر أحسها لأول مرة ... هي فتاة لو رأيتها لعجبت كيف أن مثلها يمكن أن يوحي بالحب ... على الأخص إلى رجل مثلي ... نحيلة ضئيلة يضرب لونها إلى الصفرة، لا تضع الطلاء، ولا تعرف الإغراء ولا تلبس غير البسيط الضروري من الثياب ... هي معلمة في مدرسة ابتدائية للبنات في هذا الحي ... تسألني: كيف عرفتها؟ ... أقول لك المصادفة ... كانت في دار من دور السينما مع بعض تلميذاتها، يشاهدن رواية ملونة بالرسوم المتحركة ... فلما انتهت الحفلة وخرجت بأطفالها تَعرَّضَ لها شاب ثقيل بمغازلة سمجة، فلم تعرف كيف تحمي نفسها منه، فتدخلتُ وأنقذتها، وأوصلتها إلى مدرستها مصونة موقرة مع تلميذاتها ... فشكرت لي ذلك بصوتٍ لن أنساه! ... صوت أَثَّرَ في نفسي كما تُؤثر أحيانًا قطرات الندى في قطعة الصخر ... صوت لم أسمع من قبل نبرة حنانه ورقته ووداعته حتى ولا بين ملائكة السماء! منذ تلك اللحظة شعرت أني محتاج إلى هذا الصوت، كما تحتاج الصحراء إلى ماء المطر ... فكنت أجيء في كل يوم أترقب موعد خروجها ودخولها المدرسة ... لأقابلها وأُقرئها السلام، زاعمًا لها أني من سكان الحي، وأنصرف عنها وقد ملأ صوتها قلبي ... فأعيش على هذا الغذاء ساعات حتى أحس الحاجة إلى صوتها من جديدٍ ... هذا كل عملي الآن ... إنها كل شغلي الشاغل ... بل هي النور الذي أضاء جوانب نفسي، وجعلني أتحسَّس دهاليزها المعتمة وأعرف ما فيها من خير وشر، وفضيلة ورذيلة، وكنوز وثعابين آه ... ليس الفردوس هناك في السماء ... وليس هنا في شارع عماد الدين! إنه هنا في القلب! وربما كان فيه الجحيم أيضًا! لقد عشتُ أيامًا على أمل الزواج منها ... لأني بغير هذا المصباح لا أرى شيئًا، ولا أُميز شيئًا ... ولا أُفرق حتى بين الحسنة والسيئة، ولكن دون هذا الأمل هوة أوسع من فوهة جهنم! لقد تمكَّنت من إطالة حديثي معها ... فعلمت أنها مخطوبة لابن عم لها مُدرس هو الآخر في مدرسة ثانوية ... ولقد تبيَّنتُ من حديثها وتفكيرها أضواء من الحياة النظيفة والعواطف النبيلة والأهداف السامية ... كل همها في الدنيا إخراج نماذج من البشرية الراقية. وهي تتحدث عن خطيبها كمعاون لها في مهمتها

الإنسانية ... لقد كنت أحس الضآلة والحقارة وأنا بجوارها أستمع إليها، كأني ذبابة قذرة دانية من شراب مطهر أو دمقس مقدس! ماذا ينبغي أن أفعل بعد ذلك؟ أمامي طريقان ... إما الهجوم والعمل على الظفر بها بأي ثمن، وقد أنجح ... فهي لا ترتاب في أمري، وتجهل كل شيء عني، وقد لمحت من حديثها بعض الاطمئنان إليَّ والثقة بي، وليس من العسير أن أُنمي ذلك فيها إلى حد العطف والميل وربما ... الحب، ... وإما أن أنقذها مني، وأتركها لطريقها المستقيم، وخطيبها المهذب، وحياتها النظيفة وهدفها السليم ... إذا دخلتُ حياتها فقد حطمتها وهدمتها ... فما أنا لها إلا نقمة! وما ذنب هذه الطاهرة الماضي، الباسمة المستقبل، أن تكتشف ذات صباح وهي بين أترابها وزميلاتها وتلميذاتها ورئيساتها أنها ما تزوجت غير «بلطجي»! صناعته الكسب من إتاوات الغانيات والكباريهات! وإذا تركتها ... ولم تدخل هي حياتي فقد حطَّمتني وهدمتني ... ماذا أصنع؟ إني لفي حيرة ... وإني لأرتمي كل يوم في هذا المقهى، بعد مقابلتها، لأفتح في نفسي ميدان صراع: هل أُقدِم؟ هل أُحجم؟

وأطرق غارقًا في صمتٍ طويلٍ ... ولم أشأ أنا قطع هذا الصمت ... فسكت، وجعلت أداعب بأصابعي أُذن فنجان القهوة ... إلى أن رفع رأسه مُرددًا: هل أُقدِم؟ ... هل أُحجم؟

فاكتفيت بأن قلت له: تلك هي المعركة الكبرى بين الخير والشر! وعليك الآن أن تخوضها!

مرَّت الأيام بعد ذلك دون أن أرى علوي، فقد اختفى من كل مكان ... وإذا بي أتلقَّى خطابًا من أقاصي الصعيد، بإمضاء «الشيخ عليوة» يخبرني فيه أنه افتتح كُتَّابًا من الكتاتيب في تلك المنطقة النائية التي كان يَرِد ذكرها على لساني في أحاديثي مع «علوي» في ليالي السمر بالبار ... وأنه قد انقطع لتربية النشء من أبناء الفلاحين، وتبصيرهم بالفرق بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة ... وأن الموسى عادت إلى حلق شعر رأسه زُهدًا ... والعمامة والمسبحة ظهرتا لخدمة التقوى البصيرة، والورع الحقيقي مع العمل المفيد والكدح المُجدي، وأن المصباح الذي أضاء قلبه يجب أن يظل مرتفعًا عن الدنس ... ولقد تركه لمصيره الطاهر مُعاهدًا نفسه أن يحذو حذوه، وأن ينهج سيرته ... وأنه يكفيه منه شعاع ينير له على البعد كالنجم السحيق ...

وكانت تلك نهاية المعركة.

وختم صاحبي المرح قصته قائلًا: والآن ها أنت ذا قد سمعت قصة ذلك الرجل الذي كان يُسمَّى الشيخ عليش، وعلوي بك، والشيخ عليوة ... فما حُكمك عليه؟

فقلت له وأنا أرشف قهوتي بعد العشاء الشهي الذي قدمه إليَّ: فلنترك الحكم عليه لملائكة السماء ... فإنه سيصعد إليهم هذه المرة بملفٍّ زاخر، سيقتضيهم فرزًا دقيقًا وحسابًا طويلًا ... قبل أن يصدروا حكمهم بقبوله النهائي أو طرده الدائم من الفردوس!

لا كرامة لنبي في وطنه

كانوا في القرية يطلقون عليه اسم «زنجر» ... ولست أدري أكان لهذا الاسم صلة بمنظره؟ ... لقد كان أسود اللون، قبيح الصورة، مخروم الأُذن ... يرتدي معطفًا عسكريًّا، نحاسي الأزرار، من بقايا الحرب العالمية الأولى، قد رث عليه وبلي وضاعت أزراره إلا واحدًا ربطه بخيطٍ من تيل، وهو يحمل في يده هراوة كانت فرعًا من شجرة السنط التي تُظِلُّ «الكباس» القبلي ... يرفعها ويجري بها وراء الساخرين به والضاحكين منه ... وما أكثرهم! ... ما من أحد كان يأخذه على سبيل الجد ... وما كان هو يحفل بآراء الناس فيه ... كان يكفيه دائمًا رأيه هو في نفسه ... كان له إخوة يصغرونه سنًّا تزوجوا واستقروا وأنتجوا ذُرية تسعى معهم إلى الغيطان وتعود منها بعد الغروب مُمسكة بزمام البهائم المحمَّلة بعليقها من الحشائش وأعواد الذُّرة. أما هو فكانت فكرة الزواج تثير بالنسبة إليه ضحك القرية وهذرها وعبثها ... من هي تلك التي ترضى أن تتزوج من «زنجر»؟

وكان هذا هو السؤال الذي اعتدتُ أن أُلقيه عليه، منذ أعوام طويلة، كلما ذهبت إلى الريف: هل تزوجت يا زنجر؟!

– أبدًا.

كان يقولها في شيء من المرارة والثورة ... فكنت أُلاحقه: وما السبب؟

– ما فيش فلوس!

هذا كان تعليله الوحيد ... ورأيت أخيرًا أن أُبطل هذه الحجة، فعرضت عليه أن أقوم عنه بكل نفقات عُرسه من مهر وفرح وثياب ... إلخ، لو ظفر هو بالعروس ... فسُرَّ لذلك وحمد وشكر، ولكن الأيام مرَّت ولا نتيجة لهذا ولا أثر ... ولم أعلم ما حدث ... ولكني صرت بعد ذلك كلما مشيت بين الحقول وإلى جانبي «زنجر» أتأمل من أجله كل فلاحة

تميس بقدها تحت ثقل الجرة، كما يميس العود تحت ثقل السنبلة ... فأسائلها: يا بنت ... أتتزوجين الولد «زنجر»؟

فما أسمع إلا دقة على صدرها وصيحة: يا خيبتي!

وتشتد في السير مجفلة هاربة حتى تختفي ... وإذا «زنجر» بجواري يشيعها وهو مجروح ساخط مغتاظ: داهية لا ترجعِك ... وأنا كنت أرضى؟!

ثم يأخذ في إقناعي بأن كل هؤلاء الفتيات دون ما يستحق، ودون ما يريد، ويأخذ بعد ذلك في حمد الله إذ ضرب على أبصارهن فهذا الرفض منهن نعمة! ... ولكني لا أقتنع، وأظل أطرح السؤال على طوائف مختلفة من بنات القرية ... وأهبط في سُلم الجمال درجات، وأُطأطئ الرأس نيابة عنه وأقبل تضحيات، حتى وصلنا إلى درك لا نزول بعده ... فكل مشوهات القرية، من الخنفاء والعرجاء والحدباء، عرضتُ أمره عليهن ... فما سمعت قط غير تلك الصيحة المنكرة من الأفواه، وذلك الدق المستنكر على الصدور ... وتلك العبارة الواحدة من كل الشفاه: ضاقت علينا الدنيا ... ما بقي غير «زنجر»؟!

وصدقت وآمنت أخيرًا بصعوبة زواجه ... فهذا رجل تنشأ في القرية أضحوكة، وشَبَّت فتيات القرية لا يبصرن منه ولا يعرفن عنه إلا أنه رمز السخرية، ومناط العبث ومثار الهذر ... لقد كان في مجرد تقدُّمه إلى أسرة من القرية سوء أدب منه في نظرها، وتعَدٍّ منه على كرامتها، وخدش لسمعتها ... إذا استقل شأنها فخصَّها دون أهل البلد بهذه المهانة وقلة التقدير ... هكذا كانت الأسرة تدفعه عنها كما تدفع الفضيحة ... وبلغ الحال من السوء أن أصبح «زنجر» شخصية تغيظ بها البنت المذنبة إذا أردت لها تأديبًا ... ولم يشذ عن استخدام هذه «الأداة» التأديبية أحد حتى أنا ... فقد انتهى بي الأمر أن آمنت بما يؤمن به الجميع في القرية ... وصرت إذا أردت أن أشتم بنتًا مهملة من بنات الخدمة في البيت أو الحقل أكتفي بقولي: والله يا بنت لأزوِّجكِ من «زنجر»!

فتطفر دموع الخوف والضراعة من عينيها في الحال ... وأُدرك أني قد رفعت عليها بهذه الجملة سوطًا يقيم عوجها ويصلح فاسدها ...

كل هذا و«زنجر» في ملكوت من نفسه، وعالم من رأيه، وحصن من «حالة معنوية» عجيبة ... مرتفع فوق لجج الاستهزاء العام، لا تعصف برأسه أنواء، ولا يصل إلى عينيه رذاذ ولا ماء ... لطالما ساءلت نفسي في أمره: أهو جمود؟ ... أهي بلادة شعور؟ ... أم هي صلابة شخصية وقوة إيمان؟!

أردت أن أتندر به ذات يوم، فقلت له: ومن التي ترضى أن تتخذها زوجة لك من بين بنات القرية؟

فقال بلا ترددٍ: البنت «سلطانة».

يا للعجب! ... «سلطانة» هذه هي أجمل بنات القرية طرًّا ... هي الزرقاء العينين، العسجدية الشعر ... التي يخشى التقدُّم إليها أجمل فتيان القرية وأقواهم. هي التي يتنافس فيها المتنافسون، ويتزاحم المتزاحمون، من بين من فرزت مؤهلاته وبرزت صفاته ... فما تمالكت أن صحت به: طيب اسكت ... اسكت.

مرَّت الأيام ... وعُدت مرة أخرى إلى الريف بعد غيبة عنه طويلة ... فراعني ما أجد، وأذهلني ما أرى ...

زنجر قد تزوج ...

تزوج بمن؟ ...

بفتاة أجمل من سلطانة!

وعَلِم «زنجر» بحضوري، فجاءني وكأنه يقول: «هذه المرة تستطيع أن تسألني السؤال المعهود» ... ولكني كنت علمت الجواب من قبل ... فاكتفيت بأن أقرأ على وجهه سطور انتصاره ... بل لقد قرأت ذلك على وجوه أهل القرية أجمعين ... لم يعد زنجر في نظرهم ذلك «الأضحوكة» ... إن الاسم لم يزل لاصقًا به ... ولكن قد غسل عنه كل معنى من معاني الهزء والسخرية.

كيف حدثت المعجزة؟ ... لم يخبرني هو ... ولكن الذي قصَّ عليَّ شيخ وقور من شيوخ القرية، قال: حدث منذ ثلاثة أشهر أن حضرت إلى القرية «ترحيلة» «لنقاوة» الدودة من زراعة القطن، وكان يعمل فيها بنات كثيرات من قُرى بعيدة، فيهن جميلات وفيهن رشيقات ... وكان زنجر هو «الخولي» عليهن، فإذا هو يلمح من بينهن فتاة هي أسطعهن جمالًا وأوفرهن سحرًا وأكثرهن فتنة ... بل هي حُسن لم نرَ له مثيلًا في قريتنا ... فلزمها في العمل، وتودَّد إليها ... وخفَّف عنها ... وكان لا يأمرها إلا بمعروفٍ ولا يعاملها إلا برفقٍ ... ولا يحادثها إلا بلطفٍ ... وتفتحت نفسه لها بيضاء جميلة كما تتفتح زهرة القطن. وكانت الفتاة طيبة القلب، فأبصرته «بعين» قلبها، ولم تبصره بعين أُذنها ... رأت «الإنسان» ولم ترَ فيه «الأضحوكة» ... فهي من قرية بعيدة لا تعلم عنه شيئًا ... فلم يقم بينه وبينها سدٌّ قديم من تلك الشخصية المبنية بلبنات الضحكات، في بلده، على مدى الأعوام ... لقد بادلته لطفًا بلطفٍ، وعندما قال لها مازحًا ذات يوم: «تتزوجينني؟» لم يرعه إلا قولها: «نعم» ... فقال لها: صحيح؟

فقالت:

صحيح!

– تحلفي على المصحف؟

– أحلف.

وأقسمت إنها جادة، وإنها لا تطمع في زوج خير منه، فطار زنجر فرحًا إلى أهله يزفُّ إليهم الخبر ... ولم يُصدق أهله هذا الكلام إلا بعد أن سمعوا قبول الفتاة بآذانهم ... فارتفعت «الزغاريد» في القرية ... ودفع «زنجر» المهر لأم العروس، فأبوها قد تُوُفي وتزوجت أمها بغيره ... وجاءها بحلقٍ و«غوايش» فضة وخلخال ومرتبة ولحاف ومسندين ومخدتين، وحلة وطشت وفناجين قهوة، وبراد شاي وصينية وأربع ملاعق وأربعة أطباق ... إلخ، إلخ. ثم أعدَّت العدة ليوم الفرح فأحضروا الجمل، وطفق زنجر مع إخوته يُزيِّنونه بسعف النخيل والبوص والجريد والشال الأحمر ... وأتمُّوا صُنع الهودج الذي سيُحضِرون فيه العروس الفاتنة من بلدها ... كل ذلك بين غناء أهل زنجر وغبطتهم بفوز هذا المظلوم ... وبين نظرات الدهشة والحسرة والندم من بنات القرية اللاتي سخرن من زنجر، فأظفره الله بمن لا يصلن إلى كعبها ملاحة وطهارة ودماثة.

أصغيتُ إلى كل هذا ... وعَلِمت سر «المعجزة» ... لقد جاءه الخير والتقدير وردُّ الاعتبار من قرية أخرى بعيدة ... هكذا أنصفه الله ... بالطريقة التي أنصف بها من رضي عنهم من الرسل والأنبياء.

الدنيا رواية

الدنيا رواية حقًّا في نظر أولئك الذين يؤمنون بنظرية حلول الروح ... تلك النظرية التي تزعم أن عدد الأرواح في الكون محدود، كما أن عدد الممثلين في المسرح محدود ... وأن الذي يتغيَّر هو الأدوار التي يتقمَّصها أولئك الممثِّلون ... وهي أدوار لا حدَّ لها ولا نهاية، في تلك الرواية الاستعراضية العظمى!

إذا سايرنا أصحاب هذا الزعم في زعمهم، فإن الصورة التي يمكن رسمها للدنيا تبدو جديرة بالتأمُّل ... ومن السهل تخيُّل الأرواح في ظهورها واختفائها فوق مسرح الدنيا، على الوجه الذي يحدث بالضبط في المسارح التمثيلية. فهناك، مثلًا، بعيدًا عن هذه الأرض وشمسها وقمرها، مكان خفي، يمكن أن نتصور فيه ملاكًا يقوم بوظيفة «الريجيسير» — أي مدير المسرح — يعطي الإشارة للشمس والقمر، فتُسلط الأولى أشعتها الذهبية القوية، والآخر أشعته الشاحبة الفضية على سطح الأرض ... كما تُسلَّط مصابيح «البروجكتور» الكهربائية على خشبة دار التمثيل ... ولا بأس من أن نتخيَّل ذلك «الملاك» في مكانه هذا يُباشر أعماله اليومية، وينظر في «اللوح» الذي أمامه، المسطورة فيه الأدوار والأقدار، ويستعرض ألوف الأرواح المهيَّأة للظهور على مسرح الدنيا، ويستقبل الألوف من الأرواح الخارجة منه ... ولا ضير أيضًا في أن نطلق الخيال أبعد من ذلك، لينسج لنا قصة روح من بين تلك الأرواح العائدة.

ظهر الروح الذي نروي قصته، خارجًا من الدنيا وهو مدهوش مذهول، كمن أفاق فجأة من نومٍ عميقٍ، وهو يُردد هذه العبارة: يقولون إني متُّ! ... أَأَنا الآن ميت حقيقة؟! ... زوجتي التي تتحطم تفجعًا، تصيح بأني أموت، وأني مت ... أخبروني أيها السادة ... هل أنا حقًّا ميت؟!

ولم يلتفت إليه «الملاك» المنهمك في أعماله، الشاخص ببصره إلى اللوح الذي أمامه، والسجل الذي بين يديه، واكتفى بأن هزَّ رأسه وقال كالمخاطب لنفسه: كلكم هكذا ... لا تريدون أن تُصدقوا أنكم متُّم ... ماذا أصنع لكم؟ ... أنا ... ليس لديَّ وقتٌ أنفقه في إقناعكم وإقامة الأدلة والبراهين لحضراتكم ... تَقدَّم يا ... ماذا كان دورك في الدنيا هذه المرة؟

– كنت طبيبًا ... وكانت لي زوجة ... آه ... إن زوجتي هي التي تموت الآن ولا شك حُزنًا عليَّ أنا ... يا للمسكينة!

ونسي ذلك الطبيب — أو روحه — كل ما حوله، وراح يذكر كل دقيقة من دقائق حياته التي يؤكدون له أنها انتهت ... كان طبيبًا جَراحًا، تَخرَّج في كلية الطب متفوقًا، وكل شيء يبتسم له، لقد كان من أولئك القلائل الذين ينالون دائمًا ما يريدون، كان حسن المنظر لطيف المعشر يظفر بنظرات كل ممرضة وطالبة، لكنه كان يعتقد أن هناك امرأة واحدة لا بد أن تستحوذ على كل قلبه وفكره وجسمه، ولا بد لها أن تأتي يومًا، إنه أرادها ولا بد له أن ينالها فالقَدَر قد عَوَّده أن ينيله كل ما يتمنى، فالنجاح في مهنته تمنَّاه ففاز به، وقد تمنَّى المال والترف، فجاءه المال من عمله ومن ميراث عائلي ... وهو بعد ذلك يتمنَّى أن يلقى الزوجة التي يعطيها حياته وكَدَّه وكسبه ... فوجدها ذات يوم في صورة مريضة، أتت ليجري لها عملية استئصال الزائدة الدودية، ما إن وقع بصره عليها حتى اضطرب ... أتُرى الأرواح تتلاقى حقًّا؟ ... كيف تلاقت روحاهما من النظرة الأولى؟! ... وكان من المستحيل عليه أن يتصور أنه هو الذي يجري لها الجراحة بيده، ويشق جسدها بمديته ... إن قلبه لن يحتمل ذلك ... واعتذر لها ولأهلها بشتى الحجج، وعهد بأمرها إلى جَراح آخر قال إنه أمهر منه ... ولم تدرك هي معنى ذلك الاعتذار إلا يوم فاتحها قائلًا: «لقد خُلقتُ لأكون زوجك لا جَراحك» ... وكانت هذه الزوجة كل شيء في حياته ... وكان هو كل شيء في حياتها ... ما من كائنين اتفقا والتصقا وأصبحا كائنًا واحدًا مثل هذين الزوجين ... كانت زوجته تقول له يوم ترى جُرحًا في إصبعه: «يا للعجب! ... كأن الألم في إصبعي أنا ... أهو وَهْم، أهو حقيقة؟ ... كيف ينتقل الوجع المادي من إصبعك إلى إصبعي هكذا أيها العزيز؟» وكان هو يقول لها: «العجيب حقًّا هو أن كلامك هذا هو عين ما عندي ... لقد شعرتُ فعلًا يوم جئتني لأشق جسدك، كأن المشرط سيشق جسدي أنا، وأنا بالطبع باعتباري جراحك لن أعطي مثلكِ البنج، فتصوري جراحة تُجرى لي بغير بنج، بينما أنتِ المريضة لا تحِسَّين الألم!» وعاش هذان الزوجان السعيدان أعوامًا كلها هناء ... ولم ينجبا أولادًا ... ولم يحل

ذلك دون تعلُّق أحدهما بالآخر ... بل لقد كرِها الأطفال حتى لا يسمحا لغيمة أسفٍ أن تُخيم على حبهما ... إنهما هكذا ناعمان، أحدهما يكمل الآخر ... ولا حاجة لهما بثالث ... وجاء اليوم المشئوم ... فقد نهض على عادته في الصباح المبكر لإجراء عملية جراحية، ولكن زوجته أحسَّت في ذلك اليوم خطرًا ... وتنبَّأت بكارثة، كما تتنبَّأ آلة الرصد بكسوف الشمس ... فتوسَّلت إليه أن يبقى معها ذلك النهار ... فأبى التقصير في واجبه ... إن مرضاه في انتظاره ... فادَّعت المرض ... فلاطفها، وداعبها حتى كشف بظرفٍ عن تحايلها، وقبَّلها قُبلة طويلة، وانفلت من بين ذراعيها المتشبثتين بعنقه ... وتركها جامدة كالتمثال ... وفي الظُهر عاد وفي جسمه السُّم ... فقد شُرطَ قفازه في أثناء الجراحة، وسرى الداء في دمه من إصبع مجروحة، واجتمع حول فِراشه أساتذة الطب وأساطين العلم لينقذوه من الموت ... ومن خلفهم زوجته تموت وتحيا مع كل نفس من أنفاس قرينها الحبيب ... ولكن ... كان الموعد محددًا لانتهاء دوره في الحياة عند هذا الموقف ... وكان على الروح في ذلك الوقت أن يخلع الجسد كما يخلع الممثل ثياب التمثيل ... وعندما كان يُسلم النفس الأخير، بين شهقات امرأته المكتومة، وبريق دمعها المنساب، ووقفتها المترنحة المتجلدة، وابتسامتها المموهة الدامية، خُيِّل إليه أن يرى الحقيقة تضطرب في الظلام خلف عتبة الحياة ... نعم ... الحقيقة هي أن الحياة ليست حقيقة ... كان إحساسه إحساس ذلك الممثِّل الذي عاش دوره، ونسي أمره، وأبكى الحاضرين وبكى هو نفسه، إلى أن فرغ من الموقف الأخير، وشعر بنزول الستار، فالتفت، فإذا عينه تلمح في الظلام «الكواليس» بما فيها ومن فيها، فسكن ثائره، ورفع يده ليمسح دمعه، قبل أن يدلف إلى داخل المسرح فيسخر منه زملاؤه ويسخر هو من نفسه ... ولكن عبرات المشاهدين كانت تَردُّه إليهم وإلى التعلُّق بهم وبدوره ... فالعواطف في ذاتها حقيقة ... كذلك الطبيب المحتضر ... خطرَ له أن يبسم لزوجته الثكلى، وأن يهمس لها أن الأمر زيفٌ في زيفٍ، ولكن ... كيف يكون كل هذا الحب زيفًا؟ ... مهما يكن ما بعد الحياة، وما بعد التمثيل، فإن الدموع في ذاتها جديرة بالاحترام، والحب في ذاته أجلُّ من أن يُهزأ به. إن الحب حقيقة، وإن ما يربطه بزوجته لا يمكن أن يُخلَع مع رداء التمثيل، ولو اجتمعتْ عليه كل ملائكة السماء! ... وهكذا ترك الميت خشبة «الأرض» وخلع رداء جسده، ودخل على «الملاك» المدير، روحًا عاريًا مجردًا ... ولم يحس بعد فَرقًا كبيرًا بين ما كان منذ لحظة، وما يكون الآن ... أين هو ذلك الموت الذي يقولون عنه؟ ... ما الذي تَغيَّر فيه؟ ... ها هو ذا يحب زوجته حبًّا جنونيًّا ... وكل أمله أن يلقاها ... ولكنه لا يستطيع ... لأنه ميت، كما يقولون ... إذ يراها، ويرى جزعها، ويريد أن يمدَّ يده إليها،

وأن يُحادثها ليُهوِّن عليها ... ولكن صوته لا يَبلغها، ويده لا تطيع إرادته ... ما من أعضاء مادية تأتمر الساعة بأمره ... كأنها أشياء منفصلة عنه ... لا يملك تحريكها، حاله الآن كحاله عندما كان ينتابه في الدنيا كابوس فيريد وهو في فراشه أن يتحرك، ولكن إرادته لا تُطاع ... إنه الآن إرادة مُطْلَقَة في الهواء لا تُسيطر على أجسام، ووعي مُطْلق في الفضاء لا يؤثر في أشخاص، عدا ذلك، فهو هو لم يتغير فمن يدريه أن هذا موت؟ ... لعله نوم عميق أو حلم عابر أو كابوس مؤقت!

والتفت مرة أخرى إلى «الملاك» المنهمك في أعماله وقال له: أنا لا أحس أني ميت.

فنظر إليه «الملاك» نظرة شزراء وقال: أنت حر.

– أريد أن أعود إلى زوجتي.

– قل هذا لعزرائيل من فضلك.

– عزرائيل! ... أتمزح؟

فلم يتمالك «الملاك» وقال نافد الصبر: ليس عندي وقت للمزاح يا سيدي ... آه، لو درى عزرائيل! ... ذلك الذي لا تبطل له شكوى من كثرة أعماله، لمجرد قبضه عدة أرواح كل يوم، ينفض بعدها يديه ويستريح ... أما أنا فيجب عليَّ أن أقاسي من أرواحه وأتحمَّل حماقاتها، وأُصغي إلى ثرثرتها! ... يا حضرة الفاضل. ألم يقبضك عزرائيل؟ ... كيف تريد إذن مني أن أُعيدك إلى زوجتك؟ ... وإذا كان كل روح يقبضها زميلي أُعيدها أنا، فما الفائدة إذن من قبض الأرواح؟!

– أنا شخصيًّا لا أرى فائدة ... لقد كنت مع زوجتي في أتمِّ هناء ... فلماذا تتدخلون أنتم لتفرقوا بين المحبين؟!

– لا نستطيع يا سيدي الفاضل أن نتركك في هذا الدور، أعني في هذا الجسد كما تحب أنت وتشاء، لأن روحك تلزمنا في عمل آخر.

– عمل آخر؟

– طبعًا ... لا بد لك من جسدٍ آخر تحلُّ فيه، ودور آخر تقوم به ... وهل تظن أن هذا كان أول أدوارك أو آخرها؟ ... لقد سبق لك أن حللتَ في مئات الأجساد وقُمت بمئات الأدوار.

– أنا؟ ... أنا سبق لي أن كنت شيئًا آخر غير زوج يحب زوجته، وطبيب جراح في ...

فابتسم «الملاك» ابتسامة الساخر المتبرم، الراثي لجهل مُحدثه ... أخذ يُقلِّب في صمتٍ صفحات سجله الضخم، إلى أن وقف على صفحة، نظر فيها لحظة، ثم قال: اسمع يا سيدي

... قبل أن تكون زوجًا وطبيبًا، كنت لِصًّا سِكيرًا، فَتكَ براقصة في ملهى ليسرق حُليها ... ومات على المشنقة!

– أنا؟!

– انتظر ... ثم كنتَ قبل ذلك جنديًّا بسيطًا قُتِل في معركة ... ثم كنتَ طفلًا مات بالدفتريا، ثم كنتَ امرأة ماتت في الوضع ... ثم كنتَ رجل دين مات بالشيخوخة، ثم أميرًا مات مسمومًا ... ثم كنتَ ساحرًا هنديًّا لدغته أفعى، ثم كنتَ فتاة انتحرت في حادثة غرامية ...

– كفى ... كفى ... إني لست مجنونًا لأُصدق هذا الهراء ... أنا طبيب جراح ... ولي زوجة أحبها، وإذا لم ألحق بها فهي لا بد لاحقة بي ... ولن أصدق أبدًا أني كنت أُمثِّل دورًا.

فنظر إليه «الملاك» بابتسامته الهازئة، وقال: كل مرة تقولون لي عين هذا الكلام، أنت وغيرك ... إنكم لا تصدقون أن هذا كان تمثيلًا.

– تمثيلًا؟ ... حُبها لي وحبي لها ... وحياتنا معًا التي لا نتصور حياة غيرها! ... لا ... لا.

– إنك لم تزل واقعًا تحت تأثير دورك ... إلى أن تذهب إلى البحر، فتغسل ذلك الطلاء، وتزيل ذلك «المكياج» عندئذٍ فقط تكون على استعداد لارتداء الدور الجديد.

وأشار «الملاك» إلى أحد مُساعديه العديدين، إشارات ذات معنى، فتقدم ليقود روح الطبيب، ولكنه وقف ونظر إلى عتبة الباب، وقال لرئيسه: عزرائيل أرسل إلينا روح امرأة.

ولم يكد يتم كلامه حتى ظهرت بالباب روح الزوجة، وما كاد روح الزوج الطبيب يرى روح زوجته، حتى صاح فرحًا: ألم أقل إنها لا بد لاحقة بي!

واندفع كلٌّ منهما نحو الآخر ... وقالت روح الزوجة: آه يا زوجي العزيز ... لم أستطع البقاء هناك بعدك، لقد كانت ليلة فظيعة ... تلك التي رأيت نفسي فيها وحيدة بدونك، أُناديك في الظلام ... ولم أتمالك نفسي عند الفجر، وأنا محطمة الأعصاب فتناولت كل ما كان بجواري من أقراص الأسبرين طالبة النوم الأبدي، والراحة السرمدية، أو اللحاق بك، وها هو ذا أملي يتحقق وأراك ... كيف أنت أخبرني ... إنك فيما أرى، كيف قالوا إذن إنك مت؟ ... أنا أيضًا لست ميتة فيما أعتقد ... كنت أتمنى الموت ... وقد شعرت عندما استدعوا الطبيب والإسعاف بعد تناولي الأقراص، أنهم يهمسون حولي بكلمة «الموت» ولكن ... أين هو الموت؟! ... أين هو ذلك «الموت»؟!

ولم يستطع «الملاك» صبرًا ... فنفخ صائحًا: أُف! ... لعنة الله على هذه المهنة!

طفق الروحان يُثرثران كالأطفال، وقد أعماهما الفرح عن كل ما عداهما، ولم يحفلا بمن حولهما، وأدرك «الملاك» أنهما لن يفرغا من الحديث، إذا تُرِكا وشأنهما، فأومأ إلى مساعده أن يقودهما إلى حيث يغسلان عنهما آثار دوريهما ... إلى «بحر النسيان».

واتجه المساعد نحوهما ليذهب بهما، فجفلا منه وابتعدا عنه، والتفتا إلى «الملاك» صائحين: أيُراد التفريق بيننا ها هنا أيضًا؟

– لا بد من ذلك.

– نتوسل إليك ... نتوسل إليك أن تدعنا معًا دائمًا ... في كل مكان، وفي كل زمن، وفي كل دنيا ... ماذا يُكلفك هذا أيها الملاك اللطيف؟

– هذا قد يُحدث لنا بعض الارتباك في العمل.

قالها بصوتٍ بدت فيه رنة لين، فمضى الزوجان في الإلحاح: نتوسل إليك ... مثلك لن يعدم وسيلة ... اجمعنا دائمًا ولا تفرق بيننا أبدًا.

– سأرى ... سأرى ... ربما دبَّرتُ لكما ذلك ... لكن اذهبا الآن قبل كل شيء واغتسلا في البحر.

– شكرًا لك.

لفظها الروحان بحرارة وفرح ... وذهبا في الحال مع المساعد صاغرين إلى بحر النسيان.

وهناك وجدا بحرًا هائلًا له شاطئ جميل مثل شواطئ المصايف الشهيرة ... والبحر يعجُّ بالأرواح السابحة فيه، فخلب لُبَّهما المنظر، واندفعا إلى البحر ضاحكين سعيدين كما كانا في الدنيا.

وقفزا معًا إلى الماء، يتناغيان بأرق الأسماء، وغمرهما موج أبيض كأنه رغوة الصابون.

فإذا هما يحسَّان كأن شيئًا يزول عنهما رويدًا رويدًا ... وإذا كلٌّ منهما يردد من أعماق نفسه متعجبًا متسائلًا: «من أنا؟ ... ومن هذا الذي بجواري»؟ ... وخرج من هذا البحر من خرج إذعانًا لأوامر المساعدين، وبقيا هما حتى أشار إليهما المساعد الموكل بهما، فخرجا كما تخرج اللوحة المكتوبة من الماء ... لا أثر في نفسيهما لحرفٍ واحدٍ من حروف حياتهما الماضية ... وأعادهما المساعد إلى «الملاك» وقد جاءت نوبتهما في المثول أمامه، لتوزيع الأدوار الجديدة، فسأل كلًّا منهما: هل تعرف من أنت؟ ... وأين كنت؟ ... وهل تعرف من هذا الذي بجوارك؟

فأشار كلٌّ منهما بالنفي ... فقال «الملاك» كالمخاطِب لنفسه وهو يراجع سجله الضخم: إني وعدت مع ذلك أن أجمعكما مرة أخرى في دورين يصلحان لذلك، فلتكن

أنت إذن طيارًا رياضيًّا ... وأنتِ فتاة عاطفية ... أيها المساعد ... اقذف بهما إلى مسرح «الأرض».

كل شيء كان قد أُعد ليصير «هو» طيارًا، فقد خرج إلى الدنيا طفلًا في أسرة متوسطة المركز طيبة المنبت، وشغف في حداثته بالألعاب الرياضية، وغدا فتًى وتعلم في المدارس، وأصبحت له ميول وموجهات، بعضها يدافع البعض، ولكن الظروف النهائية وجَّهته على الرغم من كل شيء إلى الطيران، فدرسه، والتحق بإحدى شركات الملاحة الجوية ... أما «هي» فقد شبَّت خيالية النزعة مُدلَّلة مترفة في أسرة ميسورة الحال، مفككة الأخلاق ... الأب مشغول بنفسه وملاهيه، والأم ساذجة ضعيفة الإرادة ... وولعت الفتاة بالرقص والحياة الصاخبة الحديثة ... وكان «هو» في طرف من المجتمع و«هي» في طرف، ولم يكن من السهل أن يلتقيا ... فهو لا يرتاد المجتمعات التي ترتادها هي، ومع ذلك فقد كان لا بد من التلاقي، وقد حدث.

كان يقود طائرته ذات يوم ... وكان الباب الصغير الذي يفصل بين مكان قيادته وبين مكان الركاب مفتوحًا على غير العادة، فلمح في أحد المقاعد فتاة تقرأ إحدى المجلات ... ما كاد يراها حتى ارتجف، وارتجفت معه الطائرة بمن فيها، فقد غفلَ لحظة عن قيادتها ... وانزعج الركاب قليلًا، ورفعت الفتاة أهدابها الطويلة ... فتقابلت ... عيناهما ... وعجب مهندس اللاسلكي لما حدث، ونظر إلى الطيار بجواره، فألفاه يصيح بين ضوضاء المحركات قائلًا: «إني أعرفها ... أين رأيتها؟ ... متى رأيتها»؟ ... وما كاد يهبط بالطائرة في مطار الوصول، حتى قفز منها وتبع الفتاة، وتقدم يخاطبها كأنه يعرفها من قبل ... أما هي فلم تنهره ولم تغضب منه، بل أحسَّت الارتياح والرضا، وشيئًا من الاطمئنان الخفي إلى هذا الشاب ... ومضى هو يقول بإخلاصٍ حارٍّ: إني آسف إذ أضطر أن أقول لكِ تلك العبارة التي ابتذلها الشبَّان اليوم: «أين رأيتك من قبل»؟ ... ثقي أني لا أتخذها حجة لمحادثتك ... ولكني ... عندما وقع بصري عليكِ شعرت في الحال أني أعرفك وأني رأيتك في مكان ما، انتظري ... ربما تلاقينا آخر مرة في ... في بحر؟

فأجابت باسمة: من الجائز ... في «بلاج» من هذه «البلاجات».

– ربما ... أخشى أن تكون الطائرة قد أزعجتك عندما ارتجفت.

– لا ... إني فقط عند هبوط الطائرة، أحس عادةً بعضَ الصداع ... ولكن عندي دواء لذلك.

– قُرص واحد من الأسبرين يكفي.

فظهر فجأة الارتياع على وجه الفتاة، وهمست: أسبرين! ... أرجوك ... لا تلفظ هذه الكلمة، لا أمقت شيئًا مثلما أمقت الأسبرين ... ربما اتهمتني بالخبل ... ولكني منذ صغري أرتاع لمجرد رؤيته ... سامحني ... هنالك أشياء فينا ولا نستطيع لها تعليلًا.

– لا تؤاخذيني ... إني آسف لم أقصد إيذاءك مطلقًا.

– أعلم ذلك ... هذا ليس ذنبك ... إنما هي نزوة من نزواتي ليس لها مبرر ... ألا يتفق ذلك أحيانًا لكثير من الناس؟ ... ألا يحدث لك أنت أيضًا أن تكره شيئًا بدون سبب؟

– نعم ... نعم ... أنا أيضًا في الصغر كنت أحس الإغماء كلما ذُكِرتْ أمامي كلمة «عملية جراحية» ... وعبثًا حاول أهلي تعليل ذلك ... ولكن هذه الحالة زالت بزوال عهد الصبا ... وأصبحت بعدئذٍ شخصًا عاديًّا.

– أرأيت؟ ... فينا أشياء كثيرة متقاربة.

– هذا من حُسن حظي.

منذ تلك المحادثة الأولى، وهما يشعران كأن شيئًا يجذب أحدهما إلى الآخر ... ولم يمضِ قليل حتى تمَّ بينهما الزواج، ولكن ... مرَّت الأيام وكلٌّ منهما يلحظ أنه يسير في طريق غير طريق الآخر ... هو يأتي من عمله متعبًا فيجد المنزل يصخب بأنغام «الرومبا» و«الفوكس تروت» و«الهوجي بوجي» فيُنبِّهها برفقٍ: أما تكفيني طول النهار ضوضاء المحركات؟

فتجيبه بتبرمٍ: محركات؟! ... هذا كل ما تعرفه ... أنت لست «رومانتيك».

وكان يبلع هذا الخلاف بينهما في الاتجاهات ... وكان يعلِّل النفس بأن هذا طيش قد تمحوه الأمومة ... وأنجب منها طفلين جميلين، ولكن الأمومة لم تقهر عندها المزاج ... بل المزاج هو الذي قهر الأمومة ... وأمسى الزوج الطيب يجد ليالي زوجته مشغولة كلها بالحفلات والسهرات ... وتعدَّى الأمر إلى ما هو أَمَرُّ ... فقد دخل عليها يومًا فوجد لديها شابًّا لا يعرفه ... زعمت أنه من رفاق الطفولة، وأنه أخوها في الرضاع ... وقام بين الزوج وزوجته شجار، حسمه الزوج بالحسنى مراعاة لأولاده ... ولكنه أدرك عندئذٍ أن علة شقائه في الحياة هي هذه المرأة ... وكرَّت الليالي حمراء بالنسبة إلى الزوجة اللعوب، بيضاء من السهاد، سوداء من الهم، بالنسبة إلى الزوج المنكود ... ولم يعد يُحسن عمله لقلة نومه واعتلال صحته، وسمع همسًا في الشركة المتذمِّرة يُنذر بالشر، كما سمع همسًا عن سلوك امرأته يُندَى له الجبين الحر ... وأكلت نفسه الهموم، ونخرت في قلبه الشكوك ... وفي ذات ليلة دهم زوجته وهي في أحضان شاب ... فارتاعت وقالت متلعثمة إنه مُعلم

رقص يعلمها الرقصة الجديدة ... وفَقَدَ الزوج صوابه فأخرج مسدسه وأطلق على زوجته رصاصة أردتها قتيلًا ... وقفز «معلم الرقص» المزعوم قفزة «فوكس تروت» من أعلى السُّلم وهرب كما يهرب الثعلب من حظير الدجاجة ... وسمع الجيران الطلق الناري، فصاحوا، وأقْبَل «البوليس» ينفخ في صفارته وثاب الزوج إلى رشده، وفطن إلى الفضيحة، فأفرغ في رأسه رصاصة أخرى أردته قتيلًا هو الآخر.

ورفع «الملاك» بصره من فوق سجله الضخم على شجار روحين داخلين عليه ... أحدهما يقول للآخر: سخيف! ... أُقسم إنك سخيف ... تطلق عليَّ مسدسك لسببٍ تافه كهذا؟! ... ما أضيق ذهنك أيها الزوج المغفل! ... ولكن هل يُنتظَر من مثلك تصرف غير هذا؟! ... إنك طول عمرك كنت زوجًا مغفلًا!

– اسكتي أيتها المرأة ... لا داعي لسلاطة اللسان! ... ولكن الذنب ليس ذنبك ... الذنب ذنبي أنا ... لا شك أني جننت حتى أقتلك وأقتل نفسي معكِ في نفس الوقت ... ما الفائدة؟ ... ماذا فعلت أنا إذن؟ ... ها أنت ذي معي هنا أيضًا ... يا للمصيبة! ... يا للمصيبة!

ولم يجد «الملاك» بُدًّا من التدخل، فصاح فيهما طالبًا إليهما السكون واحترام المكان ... فتقدم إليه الزوج — أو على الأصح روحه — صارخًا متوسلًا: يا ملائكة السماء! ... يا شياطين جهنم! ... يا عفاريت الجن ... خلصوني من هذه المرأة!

مدرسة المغفلين

هَبَّ من فراشه بعد منتصف الليل على طَرْق الباب، وقام ليفتح، وهو كالسكران من حلاوة النوم، ومشى في دهليز مسكنه الذي يبيت فيه وحده، مشية غير الواثق من يقظته، ثم فتح بغير تفكير، وإذا شاب يدخل صائحًا: ارحموني ... ارحموني.

ويندفع إلى البهو، فيُضيء أنواره كلها، ويختار مقعدًا ضخمًا فخمًا يرتمي فيه، ويُخرج من جيبه ورقة، طفق يقرأ منها بأعلى صوته: ارحموني ... ارحموني.

فأقبَل صاحب البيت يجرُّ قدميه، ويسأل متثائبًا: ما هي المسألة؟

– المسألة خطيرة جدًّا، إنه الحب، إنه السهاد، إنه البعاد ... طول الليل وأنا أنظم هذه القصيدة، لعلَّها ترق وتحن، لقد قطعتُ لها قلبي، لأضع في كل كلمة قطعة ... اجلس واسمع.

فلم يجد صاحب الدار بُدًّا من الإذعان، فالضيف صديق لا يجب إغضابه، وهو في عُرف الذوق واللياقة مُكلَّف بإكرامه وإرضائه، فجلس مُكرهًا، يغالب الكرى ويتجلد، ويُصارع النعاس ويتماسك، ليسمع شعرًا ونظما في الهزيع الأخير من الليل.

ونشر الضيف الورقة في يده وأنشد: ارحموني ... ارحموني ... طار نومي من عيوني وتنبَّه صاحب البيت وقال وهو يفرك أجفانه الحمراء: عيون مَنْ التي طار نومها؟

– عيوني أنا طبعًا.

– آه ... طبعًا ... عيونك أنت فقط!

ومضى الضيف في التلاوة، حتى قطع فيها شوطًا، فلم يجد لإنشاده صدى، ولم يسمع على خريدته تعليقًا ... فرفع بصره إلى ذلك الذي يُلقي عليه أبياته، وينثر عليه آياته، فوجده يترنَّح ويتمايل ... لا من الإعجاب ... ولا من الطرب ... طبعًا ...

فكفَّ عن القراءة، وصاح: أنا آسف، يظهر أنك مُتعب، خير الأمور أن تقوم …

فأيقن النائم بالفرج، ولم ينتظر، ووثب من مقعده، كأنه عبدٌ أُعتِق، أو سجين أُطلِق، ولسانه يلهج بالشكر، ولكن الضيف استأنف: نعم … خير الأمور أن تقوم فتصُب على رأسك كمية من الماء البارد، لتفيق وتنشط وتسمع بقية القصيدة، لأنها طويلة جدًّا.

وهنا لم يطق صاحب البيت صبرًا … ولم يرَ في ذمته للضيافة حقًّا … فانفجر يلعن الحب والمُحبين، والشعر والنثر، وقصائد الغناء والبكاء، وكل ما على الأرض من نساء … وترك المكان … وذهب إلى حجرته، واندسَّ في فراشه ونام.

مرَّت شهور على تلك الليلة، وهو لا يعلم من أمر صديقه المتيَّم شيئًا … ثم ترامت إليه الأخبار بأن ذلك الغرام الذي أُنشدت فيه القصائد بعد منتصف الليل، قد جرَّ صاحبه إلى أحرج المآزق، فالحبيبة معلقة بعنقه كأنها قصيدة من المعلقات! … لا بد من الزواج … تلك صيحتها التي لا تنزل عنها، وبغيتها التي لا مفرَّ منها … ولكن كيف يتزوجها، وقد عرف عنها ما عرف؟ … إنها فتاة لعوب، من أولئك الفتيات المعروفات على شواطئ المرح، المبرزات في ملاهي الغزل … كم داعبت ولاعبت … وفتنت وسحرت … ولو أنطق الله سِلك التليفون لجهر بعدد مغازلاتها … ولو تحدثت رمال البلاج وموائد «الأوبرج» لما اختلفت على مقدار غمزاتها وبسماتها ولفتاتها.

ووقف حبيب الأمس وقفة الذائد عن عنقه، الغيور على اسمه وشرفه … كل شيء إلا الزواج من هذه الفتاة … إن الحب شيء والزوجية شيء آخر … إنه ليس مغفلًا حتى يخلط بين مسائل الغزل ومسائل المستقبل … لا … لن يتزوجها … على الرغم من جمالها الفاتن ومركز أسرتها البارز … أما هي فقالت بلسانها ولسان من توسَّط في الأمر إن لعب الفتاة قبل الزواج لا يدل على شيء، وقد أصبح مألوفًا في عصرنا الحاضر … عصر الحرية والنور … فكثير من الزوجات الناجحات شبعن لعبًا ومغازلة قبل الزفاف … إنها حجة واهية، يجب ألا يتذرَّع بها رجل جاد.

وانتصرت المرأة في النهاية، كما تعودت دائمًا أن تنتصر … ووقع الرجل في «الزوجية» كمن يقع في «حفرة» … لا يدري كيف لان وأذعن، وقال «نعم» … ولا يذكر بالضبط كيف ساخت قدمه … ولكنه أخذ يعلِّل نفسه ويُمنِّيها ويقنعها بقوله: «مع غيري ربما صحَّت المخاوف … ولكن معي أنا، مع مثلي! … وأنا أعرفها أكثر من أمها التي ولدتها، وهي تعرفني وتعرف طباعي العنيفة وشكيمتي القوية وغيرتي الشديدة وعيني الساهرة».

هذا ما كان من أمر الضيف المغرم، أما ما كان من أمر صاحب البيت، فهو لا يعرف الشعر ولا الحب ... وكل ما يعرف أن وحدته في بيته قد ثقلت عليه ... وأن البيت بلا امرأة، جسد بلا روح ... وأن همَّه في منزله أن يخرج من حجرة ليدخل أخرى، ولسان حاله ينطبق على الأغنية الشعبية القديمة:

«العزوبية» طالت عليه يا أمي اخطبي لي حلوة وغنية

ولم يكن لديه أم تخطب له ... ولم يكن من الضروري عنده أن يتشبَّث بشرط الحلوة الغنية ... يكفيه الحل الوسط ... إنه رجل مُسالم قنوع ... ولكن، من يبحث له؟ ... وهنا تذكر سيدة من صديقات الأسرة ... امرأة نصف وزوجة رجل محترم، لها علم راسخ بأخبار المجتمع الراقي ... خاطبها بالتليفون، وأبان لها عن طلبته ... فقالت ضاحكة: «أتقبل نصيحتي؟ ... الزواج في عصرنا الحاضر كما يقول المثل السائر: «على عينك يا تاجر» ... الطريقة المتَّبعة الآن أن تحضر المجتمعات والحفلات وتختار من تعجبك، وتسأل عنها ... وها هي الفرصة سانحة ... في الأسبوع المقبل حفلة خيرية في «الأريزونا» ستلقى فيها كل أنيقات القاهرة، من سيدات وفتيات ... تعال وانظر ... وأخبرني هناك وأنا أدلُّك.»

ووافى موعد الحفلة الخيرية ... وكان مساء جميلًا ... لمعت فيه عيون النجوم وتألق القمر ... فارتدى رداء السهرة، وذهب على بركة الله ... ولم يمضِ قليل، حتى غاص في بحر أضواء السماء والكهرباء والنساء، وأوغل في روضة الشجر والبشر ... وامتدَّت حوله أيدي الأغصان وأذرع الحِسان ... واستقبلته كواعب بائعات الفتنة في صورة بائعات للورد ... وأحَطْنَ به من يمين ومن شمال ... إنه حصار الجمال ... ورد يبيع وردًا ... وأزهار تحمل أزهارًا ... فأخرج من جيبه النقود من غير وعي، ونثر وبذر، ليحصد البسمات والنظرات ... ها هي ذي سوق الملاحة والرشاقة والدلال، ماذا يأخذ منها، وماذا يدع؟ ... ومن يحب ومن يكره؟ ... ومن ينبذ ومن يختار؟ ... فغشي بصره، وزاغ نظره ... وارتبك وحار ... ثم انتبه على صوت يناديه ... فإذا هي السيدة الخبيرة التي سألها هدايته ... أقْبَلت عليه وقادته كالربان الماهر، في خضم موائد الأكل ومواكب الحُسن ... وهمست في أُذنه: ألم تعجبك واحدة؟

فقال على الفور: أعجبني الكل: أحب هذه ذات الثوب الوردي، وأحب تلك ذات الثوب البرتقالي، وأحب الدانية ذات الثوب البني ... وأحب البعيدة ذات الثوب الكحلي ... وأحب الضاحكة ذات الثوب البندقي، أحب هذه، وهذه، وهذه، وهذه ... أحب الجميع.

– فضحكت وقالت ليس من المعقول أن تتزوج كل الحفلة ... يجب أن يقع اختيارك على واحدة بالذات.

– هذه الحفلة «الخيرية» وإن شئتِ فقولي «سوق النخاسة العصرية»، تعجُّ ببضاعة تُبهر العقل ... ولم أعد أدري أأنا البائع في هذه السوق أم المشتري؟ ... لقد تُهت وضللت ... تخيَّري لي أنتِ بصائب حكمتك وواسع خبرتك!

فأشارت إلى مجموعة من النساء متلألئة، تزري بالمجموعة الشمسية، وقالت: ألقِ نظرة على هؤلاء.

– أكُلهن للزواج؟

– بالطبع ... كل من ترى هنا ... الفتيات يردن أن يتزوجن، والزوجات يردن أن يتطلقن.

فأرسل نظرة شاملة على تلك النحور العارية، والصدور المكشوفة، والبسمات الفاتنة، والنظرات المفتونة، وقال في نفسه: أين ذلك العهد الذي كانت تُسمَّى فيه المرأة «السيدة المصونة والجوهرة المكنونة؟!» ... تُرى ماذا يجب أن تُسمَّى اليوم؟

وأخذ يفكر في اسم أو لقب أو وصف يمكن أن ينطبق عليها الآن ... ولكن حبل تفكيره انقطع فجأة ... فقد لمح عن بُعد صديقه الضيف، صاحب القصيدة، يدخل من الباب، وقد أحاطت به بائعات الورد كالمعتاد ... ولمحته في عين الوقت الست الدليلة الهادية، فهمستْ قائلة: صاحبك!

– نعم ... إنه يدخل وحده ... عجبًا! ... أين زوجته إذن؟ ... بلغني أنكِ كنتِ إحدى الساعيات في الخير بينهما ... وكنتِ ممن توسَّط في أمر ذلك الزواج.

فقالت السيدة بصوت الجد: حقيقة ... شوشو صديقتي، وكنت أظنها تمشي بعقلٍ بعد زواجها ... ولكن، كلام في سرك ... أنا لا أحب أن أكون مسئولة عنها الآن ... أنا أفهم أن يكون للزوجة بعض الحق في اللهو ... ولكن على شرط أن تكون في منتهى الحذر لا يُلحَظ عليها شيء ... وأن تتصرف بغاية الحرص حتى لا يبدو على سلوكها شكٌّ ... أما شوشو فلا أدري ماذا جرى اليوم لعقلها ... إنها — فضلًا عن عِلْم الجميع بأن لها حتى الآن أربعة عشاق أو خمسة في نفس الوقت — لا تحاول أن تداري أمورها، أو تستر تصرفاتها ... تصور أنها في وضح النهار تنزل من سيارتها أمام دهبية معروفة ومعها

حقيبة صغيرة تحوي «بيجامتها» الحريرية ... وكل هذا تحت سمع السائق وبصره، وتحت نظر من يمرُّ من المعارف والفضوليين الذين قد يعرفون السيارة وصاحبها ... لا ... شوشو في الحقيقة متهورة اليوم أكثر من اللازم، وإني أرى منها كل ذلك وأقول في نفسي: «ربنا يستر» ... فكل الناس يعرف سيرها الآن ... أمرها شاع ورائحتها فاحت.

– وزوجها ... ألم يشم الرائحة؟

– الظاهر أنه مزكوم، كأكثر الأزواج.

وكان زوج شوشو عندئذٍ قد تخلَّص من بائعات الورد، وسار يفحص بعينيه الجموع، كأنه يبحث عن أحدٍ ... حتى أشرف عليهما ... فلما صار على خطوات منهما لمحهما هو الآخر فأسرع نحوهما وحيَّاهما ... وعاتب صديقه صاحب البيت عتابًا هادئًا يخالطه المزح، لما لقيه في بيته من إهمال، تلك الليلة التي تفجرت فيها شاعريته ... على أنه انتقم، كما قال، فلم يدعه إلى حفلة قرانه ولا إلى بيت عروسه ... وهنا التفت إلى السيدة قائلًا بلهجة العجلة واللهفة: شوشو ... ألم تلمحيها هنا؟ ... لقد سألتني أن أسبقها ... قائلة إنها ستمرُّ ببعض صديقاتها أولًا ... وقد رأيت الذهاب لبعض أعمال أخَّرتني، وجئت حاسبًا أني أجدها ... لا شك أن حديث صديقاتها شَغلها عن الوقت ... إنه لمن حُسن الحظ أن أُقابلك هنا الليلة ... إنها خير مناسبة أُقدِّم لكِ فيها شكري ... كاد يمضي نصف عام على زواجي، الذي توسطتِ أنتِ فيه ولو تعلمين كم أنا سعيد! ... لقد كنت مغفلًا يوم تردَّدت وتمنَّعت وتخوَّفتُ ... ألا تذكرين كم جاهدت أنتِ لإقناعي؟ ... الحق كان جانبك ... شوشو اليوم ملاك ... وإني أضحك من نفسي لرأيي السابق في طيشها ... إنكِ ولا شك قد لاحظتِ اليوم كم تغيَّرتْ وعقلت ... الحمد لله، مخاوفي كانت في غير محلها ... لقد ظلمت المسكينة ... وهي في الحقيقة زوجة طيبة مخلصة يندر أن يوجد لها مثيل.

ومضى في هذا الكلام ... وصديقه «صاحب البيت» يصغي إليه فاغرًا فاه ... لا يصدق ما يسمع ... إلى أن تأكد له أن أُذنه لم تخدعه ... فهمس قائلًا: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون!

ولم يلبث هذا الزوج أن جذبته من ذراعه يد أحد المعارف ... فاستأذن ومضى معه إلى مائدة عامرة بالأصدقاء، وترك صاحبه والسيدة الدليلة الهادية يتبادلان النظرات صامتين بلا تعليقٍ ... وأخيرًا نطقت السيدة قائلة: والله شاطرة!

– شاطرة؟! ... وهل هذا مصيري أنا أيضًا؟ ... وهل نصيحتك لي ستكون من هذا القبيل؟

فضحكت وقالت: لا ... لا تخف ... ظروفك أنت مختلفة كل الاختلاف ومع ذلك ... ما دمت قد رأيت بعينك وسمعت بأُذنك فلا يصح لي أن أغشَّك ... هل تريد الصراحة؟ ... إذن اسمع رأيي: هذا جيلك الجديد وهذا عصرك ... خُذ الأمور كما هي ولا تخدع نفسك، واعلم أن أكثر النساء هنا لكل واحدة منهن على الأقل عشيقان أو ثلاثة ... وأن تلك التي يقال إنها نظيفة السمعة ولم يسمع عنها أحد شيئًا، هي التي لها عشيق واحد ... فإذا أردت مني أن أُغالطك، أو أن أُشجعك على مغالطة نفسك، فهذا أمر آخر ... ولكني أنصحك أن تنظر إلى الواقع اليوم بعين الواقع.

وسكتت لأن الموسيقى الراقصة دوت في المكان ... وقام من كل مائدة زوجان ... ودقَّ الطبل ورنَّ النحاس وعوى «السكسوفون» ... فكان لمزيج أصواتها صدى يشبه صراخ الحيوان الجوعان ... ولعبت الأجساد بالأجساد ... واحمرَّت العيون، وندت الشفاه، واتسعت الأحداق ... واضطربت الأفكار في رأس «طالب الزواج» ماذا يصنع؟ ... وماذا يقول؟ ... وعلى ماذا يعول؟

وظلَّ في اختلاط فكره وحيرة رأيه ما ظلَّت الرقصة في اختلاطها ولعبها بأفئدة الراقصين والمشاهدين ... إلى أن انتهت الرقصة ... وصمتت الموسيقى، وصفق الحاضرون ... وأقبل البعض على البعض يتحادثون ... فالتفتت السيدة الهادية إلى زميلها الخاطب قائلة: لم أتلقَّ جوابك ... ماذا قررت؟

فأطرق لحظة، ثم رفع رأسه وقال: أمرنا إلى الله ... ابحثي لنا إذن عن واحدة شريفة، عفيفة، سمعتها طيبة، ليس لها غير عشيق واحد!

الشيخ البلبيسي

لم أره قطُّ رؤية العين ... ولكني سمعت به ممن رأوه وعرفوه ... فقد كان لذلك الرجل صيت في الأقاليم منذ أكثر من ثُلث قرن ... كان رجلًا فارع الطول، فيما يقال، ضخم الجِرم، ذا هيئة تفرض على الناس التبجيل والاحترام ... وكان شديد العناية بثيابه، لا يرتدي منها إلا ما غلا في الثمن وزاد في المهابة ... كان عظيم الهامة، أشيب اللحية، طويل المسبحة، كبير العمامة.

روى لي محدِّثي عنه قائلًا: عرفت الشيخ «البلبيسي» لأول مرة في دار الباشا المدير ... دخلت عليهم في تلك «المنظرة» التي كان يجتمع فيها من حين إلى حين جلة علماء المديرية وأكابر أعيانها، فأبصرتُ «الشيخ» بطلعته الجليلة في صدر المجلس، فما شككت في أنه أعظمهم فضلًا وأرفعهم قدرًا ... فلما قدمني إليه المدير، لم أنتظر حتى أعي اسمه، وانكببت، لهيبته، على يده أُقبِّلها ... فسحبها مني برفقٍ وأفسح لي مكانًا إلى جواره، وهو يقول بصوته الوقور: أستغفر الله يا بني، أستغفر الله! ... على مَنْ أخذت العلم في الأزهر الشريف؟!

فعَلَتْ وجهي حُمرة الخجل وقلت: لم أدرس العلم ... ولكني رجل مُزارع من ذوي الأملاك ... فربت عليَّ بكفِّه قائلًا: وأنعم بالزراعة والزراع! ... من يزرع خيرًا يحصد خيرًا، ومن يزرع ...

وسعل سُعالًا خافتًا غريبًا كأنه عواء — جَهد في كتمه بكُمِّه — ومضى يقول متلطفًا: كيف اتفق أنني لم أرك هنا من قبل؟

فقلت وأنا أُلقي نظرة على الباشا المدير المتشاغل عنَّا بضيوفه وهم يتحدثون، فيما بينهم هامسين، حتى لا يزعجونا، فيما اعتقدت، بأصواتهم: إني قليل المجيء إلى البندر ... ولا أُغادر أرضي وعزبتي إلا إذا دعتني إلى ذلك المصالح أو الضرورات.

فقال الشيخ، وهو يعد بأصابعه المرتجفة حبَّات مسبحته: حسنًا فعلت يا بني ... لقد قالوا في الأمثال: الأرض التي لا ترى قدم صاحبها لا تفلح ...

وسعل ذلك السعال الغريب المكتوم، وقد وضحتْ معالمه المشابهة لعواء الكلب ... فأخذتني رعدة ... وأحسَّ ذلك مني ... فمال على أُذني هامسًا: هل أزعجك سُعالي؟ ... لا تخشَ شيئًا ... هذا أمر يأتي أحيانًا ويمرُّ مرَّ الكرام.

فقلت له باطمئنان: بل لا تنزعج فضيلتك ... إنما هو برد عارض من برد هذه الأيام.

فقال لي بنبرة وقورة هامسًا: لا ... يا بني ... هذا ليس ببردٍ ... إني ما تعودت الكذب ... إنما هو مرض آخر.

– ليس خطيرًا على كل حالٍ.

– أرجو أن يبرئني الله منه.

وسعل ... أو على الأصح عوى كالكلب ... وهو يسد فمه بكُمِّه حتى لا يبلغ الصوت أسماع الحاضرين ... وألقى عليهم نظرات قلقة مضطربة ... وهمس في أُذني: لعلَّ سُعالي لم يصل إليهم ... أما أنت فمثل ابني... ولعلَّك تكتم عني ... إنها بلية، ابتلاني بها الله ... وهو لا يبلو إلا عباده الصالحين ... أسأله تعالى أن يُنهي هذه الأزمة على خير حتى أنصرف عن هذا المجلس.

فأخذتني به شفقة ... ورأيته يلمُّ أطراف عباءته، ليُسرع بالنهوض، ولكن السعال أو العواء أدركه ... فلبث في مكانه يحشو فمه بكُمِّه ... حتى هدأ قليلًا ... فقلت له: أمَا علاج لهذا؟

– العلاج بيد الله ... وأخشى أن يكون قد فات أوانه ... كل ما أرجوه ألَّا يكون دائي خطرًا على الناس ... كفى ما حدث لذلك الخادم المسكين.

– ماذا حدث له؟

قُلتها مُرتاعًا ... فقال بصوتٍ مرتجفٍ مُتعب جاف: اشتدت عليَّ الأزمة يومًا ... وقيل إني كنت أسعل سُعالًا كعواء ذلك الكلب «المسعور» الذي عضني ... فلما أراد خادمي إسعافي ومعونتي هبرته بأسناني وعضضته عضة أدت إلى وفاته ... رحمه الله رحمة واسعة! ... ورحمني أنا أيضًا وغفر لي.

وقطع سُعاله حديثه ... وجعل يمزق كمَّه بأسنانه، حتى لا يخرج الصوت من فمه واضحًا ... وجعلتُ أنا أحاول التزحزح من مكاني مبتعدًا عنه من الخوف ... ولكن احترامي له وعطفي عليه وحرصي على شعوره وخشيتي من لفت الأنظار إليه ... كل هذا سمَّرني في مقعدي ... فتجلَّدت وقلت له بصوتٍ متهدجٍ: إنها ولا شك أزمة خفيفة ستمرُّ.

ولم أتم، فقد جحظت عيناه ... وتغيَّر وجهه ... وأرغى وأزبد ... وكشر عن أنيابه، وانقلب — في لحظة — ذلك الشيخ الوقور، إلى كلب خطر عقور ... وترك كُمَّه وفغر فاه بعواءٍ سافرٍ مرعب ... ومدَّ يديه نحوي كأنهما مخالب ... وهَمَّ بالهجوم عليَّ ... وهنا لم أدرِ من الفزع إلا وأنا أثب نحو الباب وثبة، صدمتني بعارضته الخشبية صدمة، ما برح أثرها باقيًا في جبيني ... وما كدتُ أجد نفسي في فناء الدار ... حتى صِحتُ من حلاوة الروح بالخدم والحجَّاب: الحمد لله! ... هرِبت بجلدي ... لكن المصيبة هي مصيبة الباشا المدير وضيوفه لقد أكلهم فضيلة الشيخ ونهشهم وانتهى الأمر!

وأردتُ أن أدفع بالحُجَّاب إلى داخل «المنظرة» لينقذوا من يمكن إنقاذه ... وإذا بي أرى الباشا المدير وضيوفه، يتوسَّطهم «الشيخ» الجليل، خارجين من الباب يتمايلون، والضحك يكاد يُقطعهم تقطيعًا.

فلما انكشفت لي الحقيقة وأبديت احتجاجي ... قال لي المدير باسمًا: ألا تعرف الشيخ «البلبيسي» ونوادره ودُعاباته؟! ... هذا هو الشيخ البلبيسي ... هل تعرفه الآن؟

فأشرت إلى الصدمة في جبهتي، وقلت مبتسمًا: معرفة تركت فيَّ أثرًا!

فتقدَّم نحوي «الشيخ» كما يتقدم الممثِّل بعد أن مسح عن وجهه طلاء التمثيل، وقال: الحمد لله على السلامة! ... إن شاء الله قريبًا ...

فقاطعته صائحًا: مستحيل ... لا يُلدَغ — بل قل ... لا يُعَض — مؤمن ... فبادر هو يكمل العبارة: من كلب مرتين ... هذا صحيح ... ولكن من قال لك إني سأكون كلبًا في المرة القادمة؟

– إذا قابلتني في المرة القادمة فكن كما شئت وشاءت لك براعتك.

ولم أقابله بعدها أبدًا ... إلى أن مات وذهبت أيامه ... ولم يعُد لهذه المجالس «والمنادر» وجود ... وانقرض هذا النوع من الناس ... وانقرض معه نوع من المواهب الطبيعية يتفجر من السليقة الإنسانية، كان لازمًا لإدخال الأُنس على مجالس ذلك العهد.

إن لكل عصر رجال أُنسه ... ولكن عصر «المنادر» كان له رجال قلَّما يجود بمثلهم الزمان.

لا آسف على شيء أسفي على أني لم أقابل «الشيخ البلبيسي» مرة أخرى ... وإن كنت على ثقة من أنه كان سيترك فيَّ مرة أخرى أثرًا لا يُمحى.

إبليس ينتصر

اتخذ قوم شجرة، صاروا يعبدونها ... فسمع بذلك ناسكٌ مؤمن بالله، فحمل فأسًا وذهب إلى الشجرة ليقطعها ... فلم يكد يقترب منها، حتى ظهر له «إبليس» حائلًا بينه وبين الشجرة، وهو يصيح به: مكانك أيها الرجل! ... لماذا تريد قطعها؟

– لأنها تضل الناس.

– وما شأنك بهم؟ ... دعهم في ضلالهم!

– كيف أدعهم ... ومن واجبي أن أهديهم.

– من واجبك أن تترك الناس أحرارًا، يفعلون ما يحبُّون.

– إنهم ليسوا أحرارًا ... إنهم يُصْغُون إلى وسوسة الشيطان.

– أوَتريد أن يصغوا إلى صوتك أنت؟!

– أريد أن يصغوا إلى صوت الله!

– لن أدعك تقطع هذه الشجرة.

– لا بد لي من أن أقطعها.

فأمسك إبليس بخناق الناسك ... وقبض الناسك على قرن الشيطان ... وتصارعا طويلًا ... إلى أن انجلت المعركة عن انتصار الناسك ... فقد طرح الشيطان على الأرض، وجلس على صدره وقال له: هل رأيت قوتي!

فقال إبليس المهزوم بصوتٍ مخنوقٍ: ما كنت أحسبك بهذه القوة ... دعني وافعل ما شئت ... فخلَّى الناسك سبيل الشيطان ... وكان الجهد الذي بذله في المعركة قد نال منه ... فرجع إلى صومعته واستراح ليلته.

فلما كان اليوم التالي حَمَل فأسه، وذهب يريد قطع الشجرة وإذا إبليس يخرج له من خلفها صائحًا: أعُدت اليوم أيضًا لقطعها؟!

– قلت لا بد لي من أن أقطعها.

– أَوَتظنك قادرًا على أن تغلبني اليوم أيضًا؟

– سأظل أُقاتلك حتى أُعلي كلمة الحق!

– أَرِني إذن قدرتك!

وأمسك بخناقه ... فأمسك الناسك بقرنه ... وتقاتلا وتصارعا ... إلى أن أسفرت الموقعة عن سقوط الشيطان تحت قدمي الناسك ... فجلس على صدره، وقال له: ما قولك الآن في قوتي؟!

– حقًّا ... إن قوتك لعجيبة ... دعني وافعل ما تريد.

لفظها الشيطان بصوته المتهدج المخنوق ... فأطلق الناسك سراحه ... وذهب إلى صومعته واستلقى من التعب والإعياء حتى مضى الليل وطلع الصبح فحمل الفأس، وذهب إلى الشجرة فبرز له إبليس صائحًا فيه: أَلن ترجع عن عزمك أيها الرجل؟

– أبدًا ... لا بد من قطع دابر هذا الشر!

– أتحسب أني أتركك تفعل؟!

– إن نازلتني فإني سأغلبك.

فتَفكَّر إبليس لحظة ... ورأى أن النزال والقتال والمصارعة مع هذا الرجل لن تُتيح له النصر عليه ... فليس أقوى من رجلٍ يقاتل من أجل فكرة أو عقيدة.

ما من باب يستطيع إبليس أن يَنفذ منه إلى حصن هذا الرجل غير بابٍ واحدٍ: الحيلة.

فتلطَّف إبليس، وقال له بلهجة الناصح المشفق: أتعرف لماذا أُعارضك في قطع هذه الشجرة؟! ... إني ما أُعارض إلا خشية عليك ورحمة بك ... فإنك بقطعها ستُعرِّض نفسك لسخط الناس من عُبَّادها ... مالك وهذه المتاعب تجلبها على نفسك؟ ... اترك قطعها وأنا أجعل لك في كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك ... وتعيش في أمن وطمأنينة وسلامة!

– دينارين؟!

– نعم ... في كل يوم ... تجدهما تحت وسادتك!

فأطرق الناسك مليًّا يُفكر ثم رفع رأسه، وقال لإبليس: ومن يضمن لي قيامك بالشرط؟!

– أُعاهدك على ذلك ... وستعرف صِدق عهدي.

– سأُجربك.

– نعم ... جرِّبني.
– اتفقنا.

ووضع إبليس يده في يد الناسك ... وتعاهدا ... وانصرف الناسك إلى صومعته وصار يستيقظ كل صباح، ويمدُّ يده ويدسها تحت وسادته فتخرج بدينارين ... حتى انصرم الشهر ... وفي ذات صباحٍ دسَّ يده تحت الوسادة فخرجت فارغة ... لقد قطع إبليس عنه فيض الذهب ... فغضب الناسك ... ونهض فأخذ فأسه ... وذهب إلى قطع الشجرة ... فاعترضه إبليس في الطريق، وصاح فيه: مكانك! ... إلى أين؟

– إلى الشجرة ... أقطعها!

فقهقه الشيطان ساخرًا.

– تقطعها لأني قطعت عنك الثمن!
– بل لأزيل الغواية وأضيء مشعل الهِداية!
– أنت؟!
– أتهزأ بي أيها اللعين؟!
– لا تؤاخذني! ... منظرك يثير الضحك!
– أنت الذي يقول هذا، أيها الكاذب المخاتل؟!

وانقَضَّ الناسك على إبليس وقبض على قرنه ... وتصارعا لحظة ... وإذا المعركة تنجلي عن سقوط الناسك تحت حافر إبليس ... فقد انتصر وجلس على صدر الناسك مزهوًّا مختالًا يقول له: أين قوتك الآن أيها الرجل؟!

فخرج من صدر الناسك المقهور صوتٌ كالحشرجة يقول: أخبِرني كيف تغلَّبت أيها الشيطان!

فقال له إبليس:

لما غضبت لله غلبتَني، ولما غضبت لنفسك غلبتُك. لما قاتلت لعقيدتك صرعتَني، ولما قاتلت لنفسِك صرعتُك!

نصيب

في حياة كل رجل لحظة يشعر فيها فجأة بأنه مثل غطاء الطبق الذي لا يجد طبقه، والويل لمن لا يفطن إلى هذا الشعور إلا متأخرًا، إنه يترك عندئذٍ كل شيء وينقلب مجنونًا بتلك الفكرة المُسيطرة: البحث عن شطره الآخر ... كان بطل هذه القصة من هذا النوع من الرجال ... شابٌّ مُجدٌّ طموح ... تخرَّج في الجامعات مهندسًا بارعًا ... درس في مصر ثم في الخارج، وكان في مقدمة أقرانه دائمًا ... لا يعرف غير العمل ولا تنظر عيناه غير طريق مستقبله الناجح ... وقد ركض في هذا الطريق بالفعل حتى بلغ درجة «مدير أعمال» وكاد يُشرف على الخامسة والثلاثين وهو مستغرق هذا الاستغراق في عمله الهندسي ... وإذا بغتة تدهمه هذه اللحظة الحاسمة ... وإذا هذا الغطاء الذي كان يجري على «سِنه» ناهبًا الأرض كأنه كل شيء، قد اصطدم بجدار تلك اللحظة العجيبة فوقف ودار حول نفسه دورات، ثم انبطح على ظهره ورنَّ معدنه رنينًا مكتومًا، وكأنه يهمس: «ما أنت إلا غطاء الطبق»! ... وأفاق المهندس بعدئذٍ وليس في رأسه غير فكرة واحدة: الزواج ...

ودُهِش أصدقاؤه لرنين هذه الكلمة في فمه، فهُم لم يسمعوها قطُّ منه، ما الذي حدث؟ ... وهم الذين طالما فاتحوه من قبل في هذا الأمر، فلم يجدوا منه غير الصدوف واللامبالاة ... لقد كان كلما ذُكِرت أمامه «الزوجة» — أو النصف الآخر، أو «شريكة الحياة» — يبدو عليه كأن الموضوع لا يعنيه ولا يفهم مغزاه، ويبتسم أحيانًا ابتسامة المتعجب لغلو الناس في الوصف وإسرافهم في التعبير ... لقد كان يحسُّ إحساسًا أكيدًا أنه كامل بنفسه ... وأنه واحد صحيح، لا نصف، ولا ثُلث، ولا كسر من عددٍ، إنه درس الحساب والجبر والرياضيات العليا فمَن ذا يقنعه بأنه أقل من رقم، وأنه نصف فقط، وأن هنالك نصفًا آخر في مكان ما ينقصه ليكون الناتج واحدًا صحيحًا؟ ... هذه المسألة الحسابية الآدمية من الذي وضعها؟ ... ولماذا؟ ... ولمصلحة من؟ ... لا ... لا ... إنه لا يظن

الطبيعة مشغوفة إلى هذا الحد هي الأخرى بعلم الحساب؛ لتجعل من الرجال والنساء أرقامًا أو كسورًا من أرقام تجمع بينها وتطرح ... كان هذا كلامه فيما مضى ... أما الآن فهو يقول لأصحابه: «صدقتم ... الحياة حساب ... الحياة مسألة حسابية ... أنا كسر ... أنا نصف ... اجمعوني من فضلكم على النصف الآخر»! ... لكن بقيت المعضلة الكبرى: كيف العثور على ذلك النصف؟ ... هل يترك الأمر للمصادفة، أو عليه هو بالسعي؟ ... هل القدر هو الذي يخطُّ على لوح الوجود — بالطباشير — جامعًا الأنصاف بعضها إلى بعض؟ ... أو أن على الرقم المشطور أن ينفلت هو بنفسه من تحت إصبع القدر وطباشيرته ويُسرع زاحفًا على اللوح بحثًا عن بقيته؟ ... ولبث المهندس أيامًا لا يلقي على معارفه المتزوجين غير هذا السؤال الذي لا يتغيَّر: «كيف عرفت زوجتك؟»، وكانت الإجابات مختلفة، فمنهم من يقول: «رأيتها في سهرة عند بعض الأقارب أو الأصدقاء»، ومنهم من يجيب: «قابلتها في سوق خيرية فأعجبتني، فسألت عنها»، ومنهم من يذكر: «كانت على البلاج، فتبعتها وعرفت عنوانها» ومنهم — وهم الندرة في هذا الزمان ممن يؤمنون بالنصيب، أو اليانصيب، ولا يرضون بطرائق الاختيار الحديثة — من همس له: «والله، البركة في الخاطبة أم شلبي» ... وحار المهندس في هذه الأساليب، جديدها وقديمها، لكنه لم ينكر ولم يرفض ولم يعترض ... لقد قَبِلها كلها ... كل سبيل يؤدي إلى شطره الآخر لن يتردد في سلوكه ... لقد فتح عينيه الواسعتين، وذهب بهما يجوس خلال السهرات والطرقات والشواطئ والأسواق ... لكن ... وا أسفاه: أما هذه فقصيرة وأما تلك فطويلة ... والأولى أنفها لا يروقه، والثانية فمها لا يعجبه ... ثم إذا هو أغضى عن المظهر فمن يدريه بالمخبر؟ ... لقد جَنَّد كل أصدقائه وزوجاتهم للبحث معه ... ذلك أنه لم يكن له أقارب في القاهرة ... فإن أهله في الريف ... وليسوا ممن يحسنون فهم ما يريد ... ولم تكن صلته بهم تُبيح لهم التدخل في شئونه، فقد كانوا أقارب من درجة بعيدة ... لأن والديه ماتا بعد تخرجه في الجامعة بقليلٍ ... لذلك كان اعتماده على معارفه ... وأغلبهم كان يرتاب في أنه يأخذ الأمر اليوم على سبيل الجد ... فكانت معاونتهم له ضئيلة فاترة في أكثر الأحيان، ثم زادهم فتورًا وانفضاضًا من حوله ما رأوه من تردُّده في الاختيار وعدم بتِّه في الأمر، ونبذه كل فتاة عُرضت عليه بحججٍ مختلفة ... على أنه لم يكن في الحقيقة متعنتًا ولا متعللًا، إنما هو ذهنه كان قد صوَّر له امرأة بملامحها وخصالها، وأوهمه أن تلك هي نصفه الذي لا يرضى به بديلًا ... فهو لا يريد أن ينتقي إلا طبقًا للنموذج الموضوع في رأسه ... وطال بحثه عبثًا وذهب جريه سُدى ... فقعد ذات مساء يائسًا، ونظر إلى السماء

قائلًا: «تعبت أيها القدر! ... الكلمة لك أنت الآن ... سأغمض عيني وأمدُّ يدي، فضَع فيها من تشاء!» وما جاء الصباح حتى أرسل في طلب الخاطبة أم شلبي، نعم ... ولِمَ لا؟ ... ما دام قد نزل عن نماذجه وصوره، وقنع بالنصيب المكتوب في اللوح، وأسلم قياده للقدر يخطُّ بيده ما يريد ... فماذا يصنع غير ذلك؟ ... أليست أم شلبي من عملاء القدر أو من أدواته؟ ... من يدري؟ ... لعلها هي الطباشيرة في إصبعه ... إذ لا يمكن للقدر أن تكون له وسيلة أخرى يفرض بها في مثل هذا الأمر إرادته السماوية ... وأقبلتْ تلك «الطباشيرة» فإذا هي امرأة ضخمة بدينة سمينة جسيمة كأنها فيل ... وهل ينتظر أن يملأ يد القدر أو يليق بإصبعه حجم أقل من هذا الحجم؟! ... وعرض المهندس الخاطب طِلْبته، ووصف لها على الإمكان بغيته ... فمضت المرأة واختفت أيامًا ثم عادت ومعها سجل حافل بأسماء الأُسر، ومنديل كبير يضم عددًا من الصور الفوتوغرافية لفتياتٍ على كل طراز ... فوقع في حيرة جديدة: كيف يتخيَّر وأيها يختار؟ ... وحدَّثته الخاطبة فيما حدَّثت عن فتاة تصلح له ... ولكن — يا خسارة — ! ... تَقدَّم إليها خاطب طيب ليس من السهل رفضه ... تصلح لي؟ ... وأين صورتها؟ ... وخُيِّل إلى المهندس في تلك اللحظة أن هذه الفتاة هي امرأته ونصفه وحلمه، وأن عليه أن يختطفها من منافسه اختطافًا ... وأين صورتها؟ ... فقالت الخاطبة إن أهلها رفضوا كلَّ الرفض أن يعطوها أية صورة لها ... ولكنها جميلة وأي جمال ... فتشبَّث المهندس بأذيال الخاطبة، وصاح: «لا بد من الصورة» ... ففكرت مليًّا ثم نظرت إليه نظرة دهاء فمثلها لا يعجز عن الحيلة ... لقد لمحت في بهو الدار صورة الفتاة معلقة على الحائط ... فهي ستذهب إليهم لتخبرهم بأمره ... ثم تغافلهم وتخطف الصورة المعلقة وتأتي بها إليه ... نهضت من فورها، وذهبت وتركت المهندس فريسة ذلك الإحساس ... إنها هي ... إنها هي ... لقد وجدها أخيرًا ما سر هذا الشعور؟ ... أتراه الغموض الذي يشملها؟ ... إنه لم يرها وينازعه فيها منذ الآن منازع ... كيف هي؟ ... وهل يفوز بها؟ ... إنه واثق أن صورتها هي صورة المرأة التي بحث عنها ... ولبث يفكر في ذلك طول مسائه ... وتَقدَّم الليل وأراد أن يأوي إلى فراشه ... ولكن النوم استعصى عليه فقام وأضاء المصباح الكهربائي الصغير فوق رأسه، وتناول كتابًا يهدِّئ من أعصابه الثائرة ... وإذا نظره يقع على صفحة تحتوي قصة قديمة لرجلٍ من بلاد السِّند كان يبحث هو أيضًا عن زوجة أحلامه، فكان بحثًا ممضًّا على غير طائلٍ، فقال له قائل: «لا تيأس ... ابحث عن الزوجة ولو في الصين، فلم يبطئ الرجل ... وركب في الحال البحر إلى بلاد الصين فكُسِر المركب به وبمن معه في وسط البحر ... فنجا مع

بعض القوم على خشبة من خشب المركب، ووقعوا في مكان لا يدري أي مكان هو، فأقاموا فيه أيامًا لا يجدون قُوتًا حتى أشرفوا على الموت، فقال بعضهم لبعض: «تعالوا نُعاهد الله على أنفسنا أن ندع له شيئًا فلعلَّه يرحمنا ويُخلصنا من هذه الشدة.» فقال بعضهم: «أصوم في كل عام شهرين.»، وقال البعض: «أُصلِّي في كل ساعة ركعتين.»، وهكذا ... إلى أن قال كلٌّ منهم شيئًا، والرجل طالب الزوجة ساكت فقالوا له: «قل شيئًا.»! ... فحار ولم يجئ على لسانه إلا قوله: «لا آكل لحم فيل أبدًا!» ... فصاحوا به: «الهزل في مثل هذه الحال؟!» ... فأجابهم: «والله ما تعمدتُ الهزل، ولكني منذ بدأتم وأنا أعرض على نفسي شيئًا أدعه لله فلا يخطر على بالي غير الذي لفظت به.» ... ومرَّت اللحظات بهم، فقال أحدهم: «لِمَ لا نطوف في هذه الأرض متفرقين بحثًا عن القوت، فمن وجد شيئًا أنذر به الباقين، والموعد هذه الشجرة؟» ... فتفرَّقوا في الطرق، وإذا أحدهم يرجع بعد قليلٍ بولد فيل صغير، فلوَّح بعضهم لبعض فاجتمعوا ... وأخذوا الفيل الصغير واحتالوا فيه حتى شووه وقعدوا يأكلون، وقالوا للباحث عن الزوجة: «تَقدَّم وكُل معنا»، فقال: «أنسيتم أني منذ ساعة تركته لله؟ ... إني لن أرجع في شيء تركته لله أبدًا ... ولو كان في ذلك موتي جوعًا.»، وأكل أصحابه بدونه، وأقبل الليل، فتفرَّقوا إلى مواضعهم التي كانوا فيها يبيتون ... وأوى هو إلى أصل شجرة كان يبيت عندها، فلم يكن إلا لحظة، وإذا بفيلٍ عظيمٍ قد أقبل وهو ينعر والخلاء كله يندك بنعيره، وهو يطلب القو ... فقال بعضهم: «قد حضر الأجل»، فاستسلموا وتشهَّدوا وأخذوا في الاستغفار والتسبيح، وطرحوا أنفسهم على وجوههم، فجعل الفيل يقصد واحدًا واحدًا. فيشمُّه من أول جسده إلى آخره فإذا لم يبقَ فيه موضع إلا شمَّه، شال إحدى قوائمه فوضعها عليه ففسخه ثم تركه كالعجين، وقصد آخر ففعل به مثل ما فعل بالأول ... إلى أن لم يبقَ من القوم غير الباحث عن الزوجة، وهو جالس منتصب يُشاهد ما يجري ويستغفر ويُسبِّح، ويقول: قاتل الله ذلك الذي نصحني هذه النصيحة الشؤم، وأخرجني من بلادي في طلب ...» ولم يتم كلامه ... فإن الفيل لم يمهله وقصده للفور ... فارتمى الرجل على ظهره مستقبلًا الموت، وجعل الفيل يشمُّه كما شمَّ أصحابه من قبل، ثم أعاد شمَّه مرتين أو أكثر، ولم يكن فَعل ذلك بأحدٍ من الآخرين، وروح الرجل في خلال ذلك تكاد تخرج فزعًا ... ثم لفَّ خرطومه عليه فشاله في الهواء، فظنه الرجل يريد قتله بقتلة أخرى، فجهر بالاستغفار ولكن الفيل رفعه بخرطومه وأجلسه فوق ظهره، وانطلق به يهرول تارة، ويتهادى أخرى ... إلى أن طلع الفجر واشتدَّ ضوءُه، فإذا الفيل قد أنزله عن ظهره، وتركه على الأرض أمام باب قصر

فخم ... ورجع إلى الطريق التي جاء منها ... ولبث الرجل في موضعه لا يعقل ولا يعي من الفزع والجزع ... ولم يثب إلى رشده إلا وهو داخل القصر ... فانتبه إلى نفسه ... فإذا هو في فراشٍ وثير وثياب جديدة وإلى جواره فتاة كالبدر هي ابنة صاحب الدار ... طفقت تعنى به وهو ينظر إليها ويهمس قائلًا: «أَمِن الموت إلى الحياة ... وأي حياة! ... إنها هي ... هي!» نعم ... كانت هي ضالته التي تجشَّم من أجلها السفر والبحر والخطر ... فقد تزوَّجها بعد ذلك وكانت نِعمَ الزوجة والخَدين والشريك.

وانتهى المهندس من مطالعة هذه القصة القديمة، وهو يقول لنفسه: أم شلبي ... هذا الفيل الآدمي ... من يدري ... لعلها هي الأخرى تحملني غدًا إلى تلك الأسرة التي أجد في فتاتها ضالتي! ... وطلع الصبح ... وانتصف النهار ... وجاءت الخاطبة تحمل في ملاءتها، صورة في إطار، أمسك بها المهندس متلهفًا وتَفرَّس فيها مليًّا ... ثم طفق يقول كالمخاطب لنفسه: «نعم ... لا بأس ... حقيقة إني أردت امرأتي هكذا!» وسحبتْ أم شلبي الصورة من يده برفقٍ، قائلة له إنها ستقع في الحرج إذا تفقَّدوا الصورة قبل ردِّها ... وأن عليها الآن أن تعود بها فورًا لتضعها في مكانها ... وأن ما يجب عليه عمله منذ الساعة وقد راقته الفتاة أن يمضي قُدمًا إلى أهلها فيعرض طلبه، قبل أن يرتبطوا بالخاطب الآخر، وإذا شاء فإنها تُدبِّر له موعد المقابلة مع أبيها في أقرب وقت ... فقال لها: «نعم ... أسرِعي ... الخير فيما اختاره الله.»

لم يمضِ يوم حتى عادت أم شلبي تلهث، وتدعوه إلى زيارة والد العروس، عصر ذلك اليوم، وتوصيه أن يكون حريصًا على الذهاب في الموعد المحدد بغير إبطاء ولا تأخير، فإن أهل الفتاة رفضوا بادئ الأمر الكلام في شأن أي خاطب جديد فهم قد رضوا عن الخاطب الأول، ولم يروا مبررًا لترك هذا الباب مفتوحًا بعد ذلك، ولكن الخاطبة بذلت أعظم الجهد في إقناعهم بمقابلة هذا المهندس الكفء، فمن يعلم أين النصيب؟ ... وما ضرهم أن يأذنوا له في زيارة قصيرة، لقد احتالت وصنعت ما استطاعت لتفتح له ذلك الطريق المغلق، فلم يبقَ إلا أن يصنع هو ما يستطيع ليقنع والد البنت، وهو شيخ وقور متقاعد من رجال الجيش، دقيق في نظامه، صارم في أحكامه، فقال المهندس للخاطبة: «لا تخافي ... في الساعة الخامسة بالضبط أكون هناك!» وقد برَّ بوعده، فما أزفت الرابعة والنصف حتى كان قد تهيَّأ وتجهَّز وارتدى خير ثيابه، ووقف أمام المرآة يضع منديله الحريري في جيب الصدر، وينظر إليه وقد تدلَّى وتهدل، فرأى أن يخفي بعضه ولا يُبرز غير طرفه، اعتدالًا في ادعاء الأناقة، واقتصادًا في إبداء الخيلاء، ورضي عن مظهره ...

فنزل إلى الطريق قاصدًا بيت العروس، وسار في الشارع وكل شيء فيه مبتهج فرِح، وقد غمر الاطمئنان قلبه فبدَّد حيرته، لقد انتقى له القدر شريكته، فلم يبقَ إلا أن يتقبَّلها منه شاكرًا، آه للإنسان! ... ما أشدَّ عجزه! ... هنالك مسائل لا يرتاح إلى حلها إلا إذا سقط عليه المفتاح من السماء! ... وهنالك مواقف يواجه فيها الإنسان مفرق طرق، فلا يسعفه إلا دَفعة في ظهره من يد القدر نحو إحداها ... كانت مثل هذه الخواطر تجول في ذهن المهندس وهو يواجه مفرق طرق «ميدان سليمان باشا» وإذا هو فجأة يحس دَفعة في ظهره شديدة قاصمة قد طرحته على الأرض، وإذا شيء كالعجلات يمرُّ فوق جسمه ... وكان هذا مبلغ وعيه لكل ما حدث.

ليس يدري على التحقيق كم من الزمن مضى عليه وهو في إغمائه، لكنه عندما تنبَّه وجد نفسه على فرشٍ وثير في سرير مستشفى، وجسمه كله مغلَّف بالأربطة الصحية، وقد سمع من يهمس حوله قائلًا: «لا تتحرك» فحوَّل بصره جهة الصوت، فرأى طبيبًا وممرضًا وممرضة في ثيابهم البيضاء، وقد علم منهم أنه قد أُجريت له عملية «جراحية»، وأنه قد كُسِر له ضلع، وأنه في هذا المستشفى منذ أيام، وأن حالته كانت خطيرة بادئ الأمر، ولكن الخطر زال عنه الآن ... وأنه سائر في طريق الشفاء ... وأراد المريض أن يتكلم وأن يستفسر، فمنعه الطبيب من بذل أي حركة أو جهد ... ولم يسمح له إلا بالرد المقتضب على أسئلة رجال الضبط الذين جاءوا لسماع أقواله في الحادث، وقد أجابهم بأنه لم يرَ شيئًا ... لا السيارة التي صدمته ولا لونها ولا سائقها ... فختموا محضر تحقيقهم وانصرفوا عنه، وتأمَّل هو حاله لحظة، واكتفى بالهمس في أعماق نفسه:

ضلع مكسور! ... هذا كل ما وصلتُ إليه ... أنا الآن كسر بحقٍّ ... دون أن أظفر مع ذلك بالتي تُكملني!

ثم ذكر آخر يوم كان فيه صحيحًا ... وكان سائرًا إلى بيت العروس ... ترى ماذا تمَّ في هذا الأمر؟ ... أترى الفتاة ما برحت من نصيبه؟ أم أن الخاطب الأول قد سبقه إليها، بينما هو طريح، كالجواد الذي سقط من ميدان السباق؟ كيف السبيل إلى معرفة النتيجة؟ لو استطاع على الأقل أن يبعث في طلب «أم شلبي» ليعلم منها ... ولكن ما الحيلة في هذا الطبيب الذي يمنعه من الكلام والحركة؟ فليصبر يومًا آخر أو يومين ... يا لسوء حظه إذا كان قد فقدها بسبب هذا الحادث! الويل للجاني الذي صدمه عند ذاك ... إنه لن يغتفر له أبدًا ... لا كسر ضلعه، بل تلك الطامة الأخرى، ضياع نصفه الآخر بعد أن عثر عليه.

وحانت منه التفاتة إلى ما حوله، فوجد ما أدهشه: باقات من الورد والأزهار الغالية في الآنيات، وقارورات فاخرات من ماء «الكلونيا»، وكُتبًا مُجلَّدة مُذهَّبة لقتل الوقت، وصناديق ثمينة مفعمة بالحلوى ومملوءة بالسجاير ... وكل ما يمكن أن يُهدى إلى مريض مُعزَّز مُدلَّل ... عجبًا! من هذا الذي يهتم بترفه كل هذا الاهتمام، ويعنى بشخصه كل هذه العناية؟! ... وسأل طبيبه بإيماءة من عينه عمن أحضر كل هذه الهدايا ... فلم يزد الطبيب على أن قال بسرعة وبلهجة من يقول شيئًا معروفًا للجميع: الست.

والتفت الطبيب إلى مرءوسيه يصدر إليهم الأوامر الأخيرة قبل انصرافه ... وغادر الجميع الحجرة من فورهم، تاركين المريض مستغرقًا في الدهشة: «الست» ... ومن هي هذه «الست»؟! وعادت الممرضة وفي يدها أنبوبة زجاجية وحُقنة، ملأتها ثم وخزت المريض بإبرتها ... فانتظر حتى فرغت من عملها، فسألها أن تُحدِّثه قليلًا عن تلك «الست» ... وكانت الممرضة ثرثارة ... فتدفقت تصفها بأنها أجمل وأكرم سيدة رأتها.

وطفقت تُخبر المهندس المريض بطائفة من التفاصيل لم تزده إلا عجبًا واستغرابًا، فهذه «الست» الحسناء تأتي كل يوم لتسأل عن صحته ... وهي في كل مرة تأتي بالأزهار الجميلة، وتضع النقود في أيدي ممرضيه بسخاء، وترجوهم أن يخصُّوه بكل عنايتهم، وأنها كانت في ساعات الخطر الأولى تسأل عن تطورات حالته في جوف الليل بالتليفون عدة مرات ... وأنها حضرت «العملية الجراحية» منتظِرة في حجرة مجاورة كي تطمئن على عواقبها ... وأنها أصرَّت على استدعاء «كونسولتو» من الأطباء قبل إجرائها لتزداد اطمئنانًا ... وأنها دفعت نفقات كل ذلك من جيبها بدون تردد ... بل الأعجب أن وجوده في هذا المستشفى في هذه الحجرة من الدرجة الأولى الممتازة بكل ما يلزم له من علاج وغذاء ورفاهية وترف هي التي تتولَّى نفقاته، وأن المال يسيل من بين أصابعها كالماء في هذا المستشفى من أجله ... ولا هَمَّ لها ولا تفكير إلا في شيء واحد: «إنقاذ حياته بأي ثمن» ... تلك هي كلمتها التي ترددها كل يوم وكلما جاءت ... ولكل من تقابل من أطباء وممرضين ... وختمت الممرضة حديثها قائلة ببساطة: طبعًا ... زوجتك ... طبيعي أنها تهتم بحالتك وتُضحي بكل شيء! إن شاء الله أُبشرها بالأخبار السارة عن قريب!

وخرجت من الحجرة مُسرعة، وتركته يقول كالمخبول: زوجتي؟!

وجعل يعالج حل هذا اللغز، إلى أن اهتدى إلى رأي شِبه معقول:

لعلَّ هذه «الست» التي يحسبونها هنا زوجته ليست في حقيقة الأمر سوى تلك الفتاة «العروس» التي كان ذاهبًا لخطبتها ... ولعلَّها علمت بالحادث، وأثَّر في نفسها ما وقع

له وهو في طريقه إليها ... فحملها ذلك التأثر الشديد لهذا الإخلاص كله على العناية به ... إذا كان ذلك حقًّا فهي إذن الشريكة المنشودة ... نعم ... ما أكرم نفسها! وما أسعده بمثلها! ثم لماذا تتحمَّل هي نفقات علاجه؟ أتراها اعتبرت نفسها زوجته منذ الآن، لمجرد أنه كان ذاهبًا يطلب يدها؟ ... إذا كان هذا ما وقع في نفسها، فإنه ليقرها عليه ... فهو أيضًا يعُدها زوجته من الآن ... بل منذ اللحظة التي سقط فيها تحت السيارة من أجلها ... يا لها من زوجة عزيزة ... إن رسمها في رأسه الساعة مشوَّش مختلط ... ولكنه مع ذلك يذكر بعض ملامحها التي شاهدها في الصورة ذات الإطار ... لا بد له على أي حال أن يراها سريعًا، ليشكرها على الأقل ... وانتظرَ حتى جاءت المرضة، فقال لها: أريد أن أرى ... زوجتي.

فأجابته المرضة بأنها لم تحضر بعدُ، ووعدته بأن تُدخلها عليه توًّا عند حضورها ... ولبث المريض يعد في انتظارها الدقائق ثم الساعات، ثم جاءه الليل، ثم مرَّ يوم وثلاثة وأربعة ... دون أن يسمع من المرضة سوى ألفاظ الدهشة والاستغراب ... فهي أيضًا تعجب لاختفاء هذه السيدة الآن ... بعد أن كانت تجيء المستشفى في اليوم مرتين ... ووقع المهندس لا في الهم والغم وحدهما بل في الحيرة أيضًا والحرج ... بماذا يُعلِّل للممرضة وللآخرين هذا التصرف العجيب من زوجته المزعومة؟ ... فآثر الصمت أمامهم والإقلاع عن ذكرها ... ولكنه ظل الأيام يحاول عبثًا أن يكشف لنفسه حقيقة هذا السر ... إلى أن بدرت ذات يوم من الطبيب بادرة أنارت قليلًا هذا الأمر ... فقد قال له وهو يفحص ضلعه المكسور: حالتك الآن على ما يرام ... تستطيع الآن أن تضطجع على وسادة خلف ظهرك، وأن تتكلم كما تشاء ... وأن تقرأ هذه الكتب والصحف والمجلات التي ترسلها لك الست.

فصاح المريض كالغريق الذي وجد خشبة: الست؟ أين الست؟

فقال الطبيب باسمًا: إنها الآن مطمئنة غاية الاطمئنان بعد أن أكدتُ لها منذ أسبوع زوال كل خطر.

– ولكني ... أعني ... هل حضرتْ؟

– لا ... لقد قالت لي آخر مرة إنها لم تعد ترى ضرورة للحضور، ما دام الخطر قد زال ... وإنها تكتفي الآن بالسؤال عن الحالة بالتليفون مرة كل يومين أو ثلاثة.

– هل أستطيع أن أُكلِّف أحدًا بطلبها بالتليفون؟

– بالتأكيد ... أعطِ رقم التليفون للممرضة وهي تقوم بذلك في الحال إذا شئت.

– رقم تليفون «الست» معروف هنا طبعًا.

– لا أظن ... إنها هي التي تطلبنا دائمًا ... ومع ذلك ألا تعرف أنت الرقم؟

– آه ... طبعًا ... طبعًا.

وضحك ضحكة يخفي بها ورطته ... وانصرف الطبيب، وتركه يتخبَّط في ظلام أكثف مما كان فيه ... من هذه السيدة التي تعطف عليه كل هذا العطف وهو في الخطر، فإذا انقشعت غمته وتحسَّنت حالته، انصرفتْ عنه في غير اكتراثٍ كأنها لا تعرفه؟! ثم كيف يتصل بها الآن والمسالك دونها موصدة؟ ونادى المرضة ورجا منها أن تبحث في إدارة المستشفى وفي كل مكان عن عنوان «الست» أو رقم تليفونها ... موهمًا إياها أن زوجته هذه تتعمَّد إخفاء مكانها عنه، وتتكلَّف هذا التصرف معه، لأسباب خاصة، لكن المرضة لم تعثر لهذه السيدة على عنوان معروف ولا على رقم تليفون ... وكل ما يعلمونه في المستشفى أنها هي التي تحضر وهي التي تستفسر دون أن تترك خلفها أثرًا ... ولم يجد المريض آخر الأمر غير وسيلة واحدة ... ما كاد يهتدي إليها حتى صاح فرحًا كمن وجد الفرج ... والتفت إلى المرضة قائلًا: اسمعي! ... أرجوكِ ... إذا سألتْ عني «الست» بالتليفون في المرة القادمة، فأخبريها أنه قد حدثت لي نكسة، وأني لن أعيش أكثر من ساعتين!

فتردَّدت المرضة ... فأقنعها بورقة مالية دسَّها في كفِّها ... فقبِلت المجازفة بهذه الأكذوبة لوقت محدود ... ومضى يومان ... وإذا المرضة تدخل على المهندس مهرولة لاهثة وهي تقول: تكلمت.

– صحيح؟ ... تكلمت؟

قالها وقد كاد قلبه يثب من جوفه ... فأكدت له المرضة أن «الست» تكلمت الساعة بالتليفون لتستفسر، فأجابتها بالرد المتفق عليه، فذعرت وألقت بالسماعة وهي قادمة بعد دقيقتين ... فلم يدرِ المريض ما يصنع من الفرح ... ومدَّ يده على غير وعي منه يلتمس زجاجة عطر الكلونيا ليتطيَّب ... وهو يوصي المرضة أن تُدخلها عليه للفور، وألا تنسى أنه يحتضر ... وخرجت المرضة تستقبل القادمة ... ولم يمضِ قليل حتى سمع المريض صوت المرأتين يقترب ... فأغلق عينيه نصف إغلاق، واستلقى بلا حراكٍ ومَثَّل دور من يموت. ودخلت «زوجته» المزعومة وتسمَّرت بالعتبة تنظر إليه شاحبة الوجه ... فكاد ممثِّل الموت يموت حقًّا ... مَن هذه المرأة؟ ... إنها ليست صاحبة الصورة التي في الإطار! ... هو الذي وطَّن النفس وأعدَّ الذهن لرؤية امرأة يعرفها ... أو يعرف رسمها

على الأقل؟ ... ها هو ذا أمام امرأة جديدة لم يرها قط في حياته، ولا يدري عنها شيئًا ... وانهار كل ما كان قد بناه في لحظة ... فليست هذه المرأة بالعروس التي كان ذاهبًا لخطبتها ... وليست هذه العناية وهذا الاهتمام وليد تلك الأسباب التي كان قد رتَّبها واستنبطها واستنتجها ... هذه امرأة غريبة عليه وعلى ذهنه وفكره ... لم يرها من غير شكٍّ في الماضي، ولم يصادفها في حقيقة أو خيال ... فمن تكون؟ ... ومن أين طلعت له ... وما سر عنايتها به ولهفتها عليه ... وقلقها في ساعات أزماته ... وتكلفها جميع نفقاته؟ ... هذا هو اللغز الذي فاق جميع ما عداه ... ولكن هذه المرأة التي لم يعرفها ولم يرها ... ما أجملها! ... إنه تخيل فعلًا يومًا ما، نوعًا من الجمال تمنَّاه في امرأته ... ولكنه لم يستطع تخيل حُسن كهذا ... إنه لكثير عليه هذا الجمال، ثم ما أروع وجهها في هذا الشحوب ... لقد شحب وجهها هكذا حزنًا عليه ... أهو في يقظة حقًّا؟ ... ثم ما هذا الذي يرى ... يا للعجب! ... إنها دمعة فضية تترقرق في عينيها الواسعتين كأنها قطرة ندى ... ولم تتحمَّل الحسناء ألمها — فيما يبدو — أكثر من ذلك ... فاندفعت خارجة من الحجرة، وهي تمسح دمعتها بأناملها القرمزية الأصداف، والممرضة في أثرها ... ولم يبد المريض حركة ولم يلفظ همسة فقد أذهله ما رأى عن كل شيء. ولم يثب إلى رشده، وتستيقظ له إرادة، إلا بعد أن عادت إليه الممرضة وحدها راجية مُلحَّة في الرجاء أن يكفَّ عن هذه الأكذوبة، وأن يسمح لها أن تُخبر الحسناء بالحقيقة، قبل أن تتحرج الأمور، ويبلغ إدارة المستشفى الأمر، فتتعرض هي للمؤاخذة، ذلك أن «الست» تصرُّ على استشارة الأطباء، وبذل كل عطاء لإنقاذه من الموت، ولم تنتظر الممرضة رأيه أو جوابه ... وأقبلت عليه تُعينه على الاستواء قليلًا ... وتضع الوسادة خلف ظهره، وجذبت إحدى المجلات المصورة ودفعت بها إليه، وأعلنته أنها ذاهبة تُخبر «الست» بالحقيقة، وتعود بها لتراه وهو في حالته الحقيقية. وخرجت عنه وهو مضطجع كالطفل الذي لا إرادة له ولا عزم ... المتقبِّل كل ما يجري له ويُفرض عليه ... وأخذ يعبث بصفحات المجلة المصورة بعين زائغة وفكر شارد ... وإذا بصره على الرغم منه يقع على صورة يعرفها ... عجبًا! ... إنها صورة للعروس التي رأى رسمها في الإطار ... نعم ... هي بعينها في ثياب العرس البيضاء، وإلى جانبها شاب في ثياب السهرة «الفراك» وتحت الصورة عبارة «قران بهيج» ... لقد زُفَّت إذن إلى خاطبها الأول ... حسنًا فعلت، إنه لا يأسف الآن عليها كثيرًا ... وأرسل بصره إلى الباب نافد الصبر ... مُعلق الأنفاس ... وإذا الممرضة تدخل وهي تجذب الحسناء جذبًا رقيقًا إلى داخل الحجرة، وقدمتْ إليها مقعدًا بجوار السرير، وانصرفت في الحال ... ومرَّ

كل ذلك مرًّا خاطفًا، فلم يشعر المهندس بالحسناء إلا وهما منفردان وجهًا لوجه، ولم يكن من اليسير أن يجد أحدهما الكلام الذي يبدأ به ... فوقعا أول الأمر في صمتٍ عميقٍ محرج ... قطعته الجميلة قائلة، وكأنما تتنفَّس الصعداء: أُف! ... الحمد لله على أنك بخيرٍ! ... لقد كاد يغمى عليَّ الساعة عندما حسبتك تموت!

فرنَا إليها وإلى فمها وهي تنطق هذه الكلمات، وكأنه لا يصدق أن هذا القول موجه إليه ... ثم تمالك قليلًا وقال لها: حياتي شيء مهم عندك؟

– جدًّا.

– لا يوجد غير تعليل واحد لكل هذا، إني مت حقيقة وانتقلت إلى جنة الخلد، وما أنتِ إلا حورية مكلَّفة بملاطفتي ... ولكن ... أين الشجر والثمر والكوثر ... ولماذا هذا السرير والممرضة والمستشفى!

– لا ... أنت من حُسن الحظ حي ... لأنك لو كنت مت ودخلت جنة الخلد، كنت أنا دخلت السجن ...

– السجن؟ ... وما المناسبة؟!

– آن الأوان أن أعترف لك يا سيدي بجريمتي ... أنا التي صدمتك بسيارتي ... وإني بالطبع متأسفة جدًّا ... ولكنه القدر ... أقوى منَّا ومن إرادتنا وتدبيرنا ... كنتُ مسرعة وهذا خطأ مني ولا شك ... ولكني كنت مدفوعة برغبتي في شراء ثوب حريري رأيته في الصباح، وخفت أن تسبقني إلى شرائه أخرى ... وعندما مرَّت العجلات على جسدك ... لم أقف ومضيت في السير بعين السرعة ... لا عن قسوة مني ونقص في المروءة ... بل عن خوف شديد استحوذ عليَّ ... لقد هربتُ من جسدك الملقى على الأرض كمن يهرب من شبح ... وعُدت توًّا إلى بيتنا غائبة العقل ... ورأتني والدتي فهالها اضطرابي، وقصصت عليها ما حدث، فنصحتني أن أخبر والدي بكل شيء ... وهو من رجال القضاء ... فلما سمع والدي القصة حار هو الآخر فيما ينبغي عمله ... فإن التبليغ عن هذا الحادث معناه التعرُّض للمحكمة إذا مات المصاب، كما قال لي، وإذا لم نُبلِّغ فإننا نتحمَّل تقريع الضمير طول حياتنا، وإن كرامته كقاضٍ تمنعه من أن ينصح أحدًا ولو كان ابنته بالهرب من العدالة ... وإن حنانه كأب يمنعه كذلك من أن يدفع بابنته الوحيدة إلى السجن ... وانتهى به التفكير إلى أن ترك لي حرية التصرف ... بعد أن أفهمني كل النتائج المحتمَلة لهذا الفعل ... وجعل يُعنِّفني على جنوني في سرعة القيادة ... ونصحني أخيرًا أن أتتبع حال المصاب على الأقل، وأن أعمل على علاجه وإنقاذه ... فإنه إذا شُفي لن يقع عليَّ من العقاب

أكثر من غرامة مالية، ولهذا بادرت أسأل أقسام البوليس عن المصاب في حادث السيارة عصر ذلك اليوم في ميدان سليمان باشا ... إلى أن اهتديت إليك.

وأصغى المهندس إلى حديثها، وكأنه يهبط رويدًا رويدًا من السحاب حتى لاصق التراب ... وما فرغت روايتها ... حتى نظر إليها قائلًا: يا لكِ من مجرمة أثيمة! ... كسرتِ ضلعي، وأضعتِ خطيبتي، وبددتِ أحلامي! ... وكل هذا لن تُعاقبي عليه بأكثر من غرامة مالية!

– لأنك شُفيت والحمد لله!

– أنا شُفيت! ... وما قيمة شفائي؟ ... إن موتي الآن خير من حياتي ... أَكل هذا العطف الذي نلته منكم ... وهذه الدمعة التي سقطت من عينيكِ، وهذا الشحوب الذي بدا عليكِ لم يكن من أجلي ولا خوفًا عليَّ، بل خوفًا على نفسك من الحبس؟!

اسمعي أيتها الآنسة ... أو الست ... أو الزوجة المزعومة ...

– الزوجة؟

– طبعًا ... وماذا تريدين أن يكون ظنهم هنا بسيدة مثلك تعنى هذه العناية برجلٍ مثلي؟ ... لقد خطرَ في بالهم بالضرورة أنكِ زوجتي «ولم يخطر في بالهم أنكِ قاتلتي!»

– لا تقل إني قاتلتك ... فها أنت ذا الآن في صحة جيدة.

– كم كنت أتمنى أن أموت لتدخلي أنتِ الحبس.

– إلى هذا الحد تبغضني؟

– هل أبلغتِ الحكومة أنكِ أنتِ الجانية؟

– لم أُبلغ بعدُ ... لقد رأيت أن أنتظر حتى تُشفى.

– وإذا كنت مت؟

– كنت ذهبت وقدمت نفسي للبوليس.

– أأنتِ واثقة أن القضاء كان يحكم بحبسك في حالة وفاتي من الحادث؟

– كان ذلك مُرجحًا لأني من أرباب السوابق.

– أنتِ؟ ... من أرباب السوابق؟!

– نعم ... في حادث السيارات ... سبق لي أن صدمت حمارًا محمَّلًا بالحطب في طريق عزبتنا في صيف العام الماضي، ومنذ ستة أشهر صدمت حمارًا آخر يحمل قصبًا في سكة الهرم.

– حضرتِك إخصائية في صدم الحمير؟!

فنظرت إليه وهو مغلَّف في أربطته الصحية ... وضحكت ولم يفطن هو إلى «النكتة»، ومضى يقول: أيتها الجانية ... أنا بصفتي المجني عليه، لا بد أن يُسمَع رأيي في جريمتك ... هل تريدين حكمي، أو حكم المحكمة؟

– حُكمك ...

– حكمت عليكِ بالحبس.

– تريد حبسي؟!

– في أحضان الزوجية.

فنظرت إليه وابتسمت ابتسامة المحكوم عليه الذي رضي بالحكم ولن يستأنفه أو يُناقض فيه.

مضى عام على زواجهما، فأدرك المهندس أن «القدر» حقًّا قد عرف كيف يهديه إلى «طبقه» وشطره ونصفه وزوجته المثلى ... وقد آمن أن للقدر من الوسائل أحيانًا ما لا يخطر على بال البشر ... وهل كان مثله يتصور أنه سيلقى شريكته يومًا بهذه الطريقة؟! ... إن كلمة «النصيب» التي يذكرها الناس دائمًا في بساطة ليست إلا مظهرًا من مظاهر فن «القدر» العجيب في تدبير مصائر الآدميين.

واحتفلا في المساء بمرور العام على ذلك الزواج، فهمس في أُذن زوجته قائلًا: كان لا بد لحواء أن تأخذ من آدم ضلعًا حتى توجد، وكان لا بد لكِ من أن تكسري لي ضلعًا حتى أجدكِ!

كليوباترا وماك

من أسرار الحرب الأخيرة التي لم يُكشَف بعدُ عنها النقاب ما أرويه الآن ... وما من صحيفة في العالم نشرت هذه القصة العربية، التي قد تصدم منطق الإنسان في القرن العشرين ... ولكن هذا لا يمنع من أنها وقعت بالفعل ... وأرجو ألا يُسائلني سائل عن مصدر علمي بها ... فهذا ما أقسمت ألَّا أبوح به لأحدٍ.

كان ذلك في عام ١٩٤٤م، في جزيرة ما بالمحيط الباسيفيكي اتخذها الجنرال «ماك آرثر» مَقرًّا لقيادته في حربه ضد اليابان بعد أن اضطر إلى الجلاء عن الفلبين.

كان المساء جميلًا ... والشفق ما زال يدمي على صفحة سماء بيضاء كرداء العروس، والنسيم يهب رقيقًا من البحر الهادئ النائم.

وكان «ماك آرثر» جالسًا في شُرفة مقرِّه بمفرده، وقد غرق في مقعدٍ من القماش كمقاعد الشواطئ، وأرسل رأسه إلى الوراء على المسند وراح في شبه إغفاءة ... تحت وقر التعب والإجهاد، وثقل الأعباء والتبعات.

لم ينم طويلًا ... فقد استيقظ فجأة على صوت مجاديف تمس الماء كما يمس المرود الجفن، وموسيقى تحملها الريح، وعطور تتضوع في الهواء ... ففتح عينيه، فإذا هو أمام منظر عجيب: سفينة من سفن العصور القديمة، تتهادى فوق الأمواج مقتربة ... مؤخرتها من الذهب، وشراعها من الأرجوان، ومجاديفها من الفضة، تتحرك على نغم المزامير ... وفي مقصورتها امرأة مستلقية على الحرير كأنها إلهة، يُحرق بين يديها بخور وينتشر عبير، يلعب بالرءوس، ويسحر النفوس.

نزلت تلك المرأة من السفينة، ومشت وكأنها تخطر في الهواء ... نحو مركز القيادة، وهي تقول: «مارك أنطوني»!

ففرك الجنرال الأمريكي عينيه وهو يقول: أنا «ماك آرثر»!

– نعم ... أقصد «ماك آرثر» ... إليك جئت، وأنت الذي أريد ...

– من أنتِ؟

– أنا كليوباترا.

ففحصها القائد بنظره مليًّا ... وتأمَّل ثيابها ودمقسها ودمالجها ولآلئها ... ثم التفت إلى سفينتها العجيبة، وهزَّ رأسه باسمًا، وقال: فهمت، فهمت ... إنما الذي أعجب له هو: كيف استطاعت هوليوود أن تعمل في هذه المنطقة الحربية بدون علمي؟ ... وكيف حصلت على إذن في ارتياد هذه المياه الممنوعة لإخراج الأفلام التاريخية؟ ... وما هي السلطات المختصة التي يمكن أن تتحمَّل هذه المسئولية دون الالتجاء إلى رأيي؟! ... هذه مسألة خطيرة يا سيدتي، لا يحسن الإغضاء عنها.

ونهض، وعلى محياه جدٌّ وصرامة ... وأراد دخول مكتبه ليتحرى الأمر فاعترضته الزائرة العظيمة، ووقفت بجلالها الملكي، وقالت بصوتها الملائكي: قُلت لك أنا كليوباترا، ملكة مصر ... جئت إليك من العالم الآخر ... ولعلها أول مرة يحدث فيها ذلك، منذ عرف الناس الحياة وعرفوا الموت ... إن عصركم اليوم عصر تقع فيه أعاجيب، ولكن الأعجوبة الكبرى هي تمكُّني من العود إلى الدنيا ... كيف تمكَّنتُ؟ ... هذا ما لا شأن لك ولا لي به ... وأنا لم أحضر لأُطلعك على أسرار الموت والحياة ... ولكني أريد أن تصدقني ... فلأقل لك إذن ببساطة كيف تم هذا، بطريقتكم ولغتكم التي تفهمونها: إننا بعد موتنا نتلاشى روحًا وجسدًا كذرات في الفضاء ... على أن المتعذر دائمًا هو جمع هذه الذرات، من الكون مرة أخرى في عين الجسد وعين الروح ... لقد استطعتم بجهاز الراديو أن تجمعوا من الفضاء أصواتًا وتنقلوا صورًا ... ولكن أين للموتى ذلك الجهاز الذي يجمع ذراتهم المتناثرة، في كيانهم القديم وصورهم الغابرة؟ ... لا بد أن توجد قوة هائلة تجذب هذه الذرات وتجمعها ... لقد حدثت هذه المعجزة فيما يختص بي ... لقد كنت أنت هذا الجهاز، أو هذه القوة التي جذبتني، بدون أن تشعر أنت أو تعي، إنك لا تدرك أي شبه بينك وبين حبيبي السابق «مارك أنطوني»!

قالت ذلك، و«ماك آرثر» يصغي إليها مشدوهًا ... لكأن إرادته قد فارقته ... يدرك هذا من قرأ «بلوتارك» المؤرخ اليوناني حين وصف كليوباترا ... إنها — على حد قوله — لم تكن في الجمال بالغة ما لم يَبلغه غيرها من الجميلات، ملاحة وجهها لم تكن وحدها مبعث فتنتها التاريخية، إنما هو حديثها الذي كان يَنفذ في القلوب كالشوكة ... كان صوتها هو العذوبة، ولسانها قيثارة متعددة الأوتار ... تعالجها برشاقة وتمسها بلباقة، في مختلف اللغات واللهجات ... إن مقاومة سِحر حديث كليوباترا كان هو المستحيل ...

وهمسَ القائد الأمريكي كالمخاطب نفسه: مارك أنطوني!

– نعم ... ما أعجب الشبه بينك وبينه! ... في وجهه وأنفه وقوامه ... ومشيته! ... بل ما أشبه دولتك بدولته ... لقد كان الرومان فاتحي العالم بالسيف، واليوم الأمريكان هم فاتحو العالم بالدولار ... كان للرومان مجلس شيوخ و«قيصر»، وللأمريكان مجلس شيوخ و«روزفلت».

من اللغو أن نطيل ... فمن البديهي أن نقول: إن «ماك آرثر» وقع في حب «كليوباترا» ... وهل دنا منها أحد دون أن يسقط في أتون غرامها؟ ... ومنذ ذلك المساء وهما لا يفترقان ... كانت معه كما كانت مع «مارك أنطوني» في أول حبهما ... لقد قيل إنها والقائد الروماني كانا متلازمين الليل والنهار ... كانا معًا يهيمان في الطرقات أحيانًا يمرحان ويلهوان ... هي متخفية في زي وصيفة، وهو في زي وصيف ... أما اليوم فإنها تلازم القائد الأمريكي في زي «ضابطة» من المجندات، وقد أُلحِقت بمكتبه ... وهو وضع طبيعي ... وهل يثير التفات أحد أن يكون للجنرال الأمريكي «سكرتيرة» مجندة في ردائها العسكري؟

لم يكن شيء يعكر صفو حبهما غير شبح ... هو دائمًا عين الشبح: الزوجة.

فيما مضى كانت هي «فولفيا» زوجة «مارك أنطوني» التي هجرها في إيطاليا ... واليوم هي مسز «ماك آرثر» التي تركها في أمريكا ...

يا له حقًّا من تشابه عجيب!

كلاهما زوج وأب، بعيد عن بلاده ... وكلاهما يُحزن كليوباترا ويزعجها كلما فكر في العودة إلى امرأته وأولاده ... ولم تلبث مخاوفها أن تحققت ... فها هي ذي المعركة الانتخابية تقوم في أمريكا لاختيار «الرئيس» ورُشِّح «روزفلت» للمرة الرابعة ... ولكن نفرًا من جهة أخرى يرشحون أمامه «ماك آرثر».

هنا نهضت «كليوباترا» تدرأ عن حبها الخطر، فاستعانت بقوة سحرها ونفاذ فتنتها لتصرف «القائد الأمريكي» عن هذه الفكرة، كما صرفت من قبل «القائد الروماني» عن الذهاب لمحاربة قيصر ...

لعل هذا هو السر الحقيقي في انسحاب «ماك آرثر» من معركة الانتخابات الأمريكية!

وهكذا ظفرت «كليوباترا» باستبقاء حبيبها إلى جانبها، وأقصته عن زوجته ووطنه وذويه.

على أنها كانت هذه المرة ذات فأل حسن وأثر طيب على القائد الأمريكي ... فقد حفزه قُربها وألهبه، فتوالت انتصاراته ... وصار يثب من جزيرة إلى جزيرة خلف اليابانيين ...

يطردهم منها ويستولي عليها ... وهو لا يرهب شيئًا إلا أن يبدو مندحرًا أمام «كليوباترا» ... حتى تم له الفوز الأخير ... واستسلمت اليابان ... ودخل «ماك آرثر» طوكيو دخول الفاتحين.

ومرَّت أيام لم يرَ القائد أجمل منها ... وفي ذات عصر، وقفت «كليوباترا» بجواره وأرسلت بصرها إلى البحر، وقالت: أتدري يا «مارك» أقصد يا «ماك» ... ما الذي يجول في خاطري؟

– ماذا يا «كليو»؟

– أتذكر يوم جئت إليك تحملني تلك السفينة الجميلة؟ ... لقد كانت هي عين السفينة التي ذهبت فيها إلى «مارك» في «طوروس» وقد استدعاني لأُقدم حسابًا عمَّا نسبوه إليَّ من معاونتي لأعدائه ... ولقد أَحبَّ أحدنا الآخر بعدئذٍ ... ولكن برغم ذلك ... أي إذلال وهوان أن يُستدعى رأس متوَّج ليمثل أمام قائد منتصر!

ما قولك يا «ماك» لو استدعيت إمبراطور اليابان ليمثل بين يديك؟

فأجفل «ماك آرثر» قليلًا لهذه الفكرة ... إنه لا يجهل خطورة الإقدام على هذا العمل الجريء ... إن «الميكادو» شبه إله في قومه.

ونظر إلى حبيبته مترددًا متوجسًا ... ولكنها استقبلت عينيه بنظرة منها أسكرته ... فأحسَّ قوة تدب في قلبه دبيب الخمر ... وقال: سأفعل! ... سأفعل يا كليو!

ولم تمضِ أيام حتى كان الإمبراطور بقبعته العالية الرسمية السوداء، ماثلًا أمام «ماك آرثر» في مقر قيادته وهو بقميصه الكاكي ...

واهتز العالم لهذا الحادث!

واستمرت بعد ذلك اللحظات السعيدة يرتع في ظلِّها الحبيبان، ويضحكان ويلعبان.

وخرجا ذات يوم للصيد في خليج طوكيو ... وكان النهار يولي و«ماك آرثر» لم يظفر بسمكة ... وخجِل من الهزيمة أمام حبيبته العظيمة، فغافلها واتفق مع أحد الصيادين الحاضرين، على أن يغوص في الماء ويضع في سِنارته سمكة من صيده الطازج، ونفذ الاتفاق، وجذب القائد سنارته، فإذا بها سمكة كبيرة، أراها لحبيبته مزهوًّا ... ولكن كليوباترا لم تكن بالغافلة ... وأعدَّت للغد عدَّتها ... واتفقت هي الأخرى مع الصياد سِرًّا ... فلما جاء الغد، وضع «ماك» سنارته في الماء إلى أن شعر بثقلها فجذبها ... فإذا بها: سردينة كبيرة مملحة مما يُباع في صناديق البقالين ...

ارتفعت عندئذٍ قهقهة الحاضرين ... وكاد القائد الأمريكي يغضب، لولا قول كليوباترا البارع اللبق: أيها القائد الظافر! ... ما لك وصيد السمك؟ ... اتركه لنا نحن العاديين والعاديات! ... أما أنت فصيدك الجُزر والمدن والملوك والإمبراطوريات!

ما من أكليل غار يعدل هذا الإطراء من فم «كليوباترا»!

عند ذاك ألقى «ماك» بعصا صيده، وأقبَل عليها وقلبه يقطر حبًّا، وهو يهمس: يا عزيزتي كليو!

لكن الحب شديد النهم ... إنه يأكل كل شيء حتى نفسه، إنه لا يقنع أبدًا ... ولا يعرف نهاية ولا حدًّا. لقد جعل «ماك آرثر» همَّه الأكبر بعدئذٍ مطالعة كتب المؤرخين، اليونان واللَّاتين، الذين كتبوا عن كليوباترا ... وخرج من هذه القراءة بقلبٍ نهشته الغيرة ... لقد تبيَّن له أن أكثر كلمات حبيبته التي تُناجيه بها وتخلب لُبَّه، سبق أن قالتها بنصِّها ولفْظِها لمارك أنطوني!

ودخلت «كليوباترا» عليه يومًا، فأبصرت في يده كتاب «بلوتارك» مفتوحًا على فصل يصف أخبارها ... ففهمت لساعتها ما يجيش في صدر حبيبها المقطب الجبين، فابتدرته قائلة: أرجوك ألا تصدق ما يهرف به هؤلاء المؤرخون!

– كيف لا أصدق والعبارات التي أوردوها هي عين عباراتك التي أسمعها اليوم من شفتيك؟

– اسمع يا مارك.

– من فضلِك ... أنا اسمي ماك ... ماك ... إلى متى تظلين تخلطين بيني وبين الآخر؟

– ثق أني لا أخلط ... وإنما لساني يغلط ... هذا طبيعي، أوَلا تريد للساني أن يُخطئ وهو الذي تعوَّد ذلك الاسم منذ عشرين قرنًا؟!

– إياكِ بعد الآن أن تمزجي بيننا ... تذكَّري دائمًا أنكِ رأيته مندحرًا ... أما أنا فإنك رأيتني منتصرًا.

– نعم ... لقد كان حبي له شؤمًا عليه ... أما حبي لك، فكما ترى، سعيد الطالع ... ولولاي لما انتصرت ... يجدر بك أنت أن تذكر دائمًا أني عدت إلى الحياة من أجلك ... هذا ما لم يحدث لبشرٍ غيرك!

سكن عندئذٍ ثائر القائد الأمريكي واستقرَّت نفسه ... ومضت أيام وهو هادئ مطمئن راضٍ عن حبه ... ولكن الحب لا يرضى ولا يطمئن ... لأنه إذا فعل ذلك نام، وهو كالقلب إذا نام مات.

ورنَّت في رأس «ماك آرثر» عبارتها الأخيرة: «هذا ما لم يحدث لبشرٍ غيرك»! ... فردَّد مخاطبًا نفسه ذات ليلة: حقيقة ... هذا ما لم يحدث من قبل ... هذا هو المجد الذي لم يَبلغه بشر ... كليوباترا تعود إلى الحياة من أجلي! ... ولكن مَنْ يعلم ذلك حتى الآن؟ ... لا أحد سواي ... وما قيمة ذلك إذن؟ ... تُرى ماذا يحدث لو أُذيع هذا الخبر العجيب، ونُشِر في صحف الدنيا: «كليوباترا بُعِثت لماك آرثر»!

تلك هي المعجزة التي تتضاءل بالقياس إليها ألف أعجوبة مثل القنبلة الذرية!

وتملَّكته هذه الفكرة، واستحوذت عليه الليالي الطوال ... لا بد أن يُكشف أمر كليوباترا للعالم المتحضر ... ولم يتمالك؛ ففاتحها برغبته قائلًا: اسمعي يا كليو!

– إني مُصغية يا ماك.

– أخبريني ... هل فكرتِ في المستقبل ... أعني في مستقبلك؟

– مستقبلي؟!

– نعم ... أتظلين هكذا دائمًا ضابطة مجندة في غمار المجندات لا يدري بكِ أحد؟ ... أنتِ أجمل وأشهر ملكات التاريخ ... تهبطين الدنيا ولا تشعر بكِ الدنيا؟ ... تصوري، لو أُذيع أمر وجودك، أي أقواس نصر تُقام لكِ في كل مكان، وأنا بجوارك فخور بكِ ... إنهم في أمريكا يحسدون من يقترن بإحدى النبيلات، فماذا هم قائلون يوم يرون «ماك آرثر» وفي ذراعه «كليوباترا» أبهى الملكات وألمع المُتوَّجات!

– أيها الأمريكي، أهذا هو الذي يشغل بالك الآن؟ ... أهذا هو مصير حُبنا؟ ... تريد أن تستخدمه أداة إعلان؟

– بل أريد أن يُكرمك هذا العصر.

– يُكرمني؟ ... أتدري كيف سيكون تكريمي؟ ... إني أعرف ما ينتظرني في بلدك ... سأكون ملهاة للسياح، يأتون لمشاهدتي من أطراف الأرض، ومادة للصحفيين والمراسلين لا تنضب، وموضوعًا للنساء في الصالونات والحفلات والمسارح والسباق، يثِرن الإشاعات حولي، وينهشن بألسنتهن لحمي، ويتضاحكن ويتغامزن قائلات: «أهذه هي التي قال التاريخ إنها فتنت القواد والقياصرة؟ ... ماذا فيها من حُسن وسِحر وإغراء يثير الرجال؟!»

– بل ثقي أنكِ ستكونين أعظم امرأة في زماننا هذا.

– أعظم امرأة ثروة ... هذا محتمل جدًّا، محتمل جدًّا فإن ... شركات الأزياء الكبرى في أمريكا ستتزاحم عارضة عليَّ أبهظ الأجور لأُروِّج لها أثوابها ... وشركات الزينة والجوارب، والعطور، والصابون، وكبار الحلاقين، ودور النشر، والمصورين ورجال الصناعة والمال

والأعمال ... إلخ. ولا تنس شركات هوليوود السينمائية ... فمن المؤكد أنها ستتهافت طالبة إليَّ القيام بدور «كليوباترا» في نظير مبلغ لم يُدفَع قطُّ لإنسان، وقل مثل ذلك عن مسارح برودواي الشهيرة، ومن يدري ما ستعرض عليَّ أيضًا من عمل ومن مال.

– طبيعي جدًّا أن يكون لكِ مال كثير وثروة ضخمة، لتقتني الجواهر والنفائس، وتملكي في كل قارة أكثر من قصرٍ، وفي كل بحر أكثر من يخت، وتعيشي حياة الترف الخليقة بكِ وباسمك العظيم!

– اسمي العظيم ... حقًّا سيكون كذلك يوم أراه منقوشًا بتوقيعي الكريم على كل علبة بودرة وكل زجاجة كلونيا وأحمر شفاه، وصبغة أظافر! ... هذا هو عصرك وبلدك ... وهذا هو حبك ... وهذا هو كل مستقبلي!

وقامت غاضبة، وفي عينيها دمعة، أخفتها بإصبعها، وانصرفت مُسرعة، فنهض «ماك» خلفها وهو يصيح بها: كليو ... كليو ... إني أمزح!

– لا ... أنتَ لا تمزح ... إني أقرأ ما في أعماق نفسك ... إنك لن تستطيع طويلًا أن تقنع بحبي لك في زي ضابطة ... أنت تريد أن أُحبك أمام الدنيا في ثياب «كليوباترا» وإن صبرت اليوم فلن تصبر غدًا ... إني أعرف غروركم!

– لن أُقدِم أبدًا على أمرٍ يغضبك.

وبرق عندئذٍ في رأسها خاطرٌ، فقالت: ومع ذلك ... فقد فاتنا شيء خطير ... ليس في مقدورك أن تكشف أمري ... إن ذلك يُعرِّضك لكارثة:

هَبْ أنك أقدمت وأعلنت حقيقتي للناس ... أتعلم ما الذي يحدث؟

– ماذا؟

– يحدث لك ما حدث لكل من أعلن مثل هذا الأمر من قبلك: لن يُصدقك الناس ... فإذا أصررت وماريت وجادلت قادوك بكل بساطة إلى مستشفى المجاذيب.

– ماذا تقولين؟

– أقول الحقيقة ... لقد كذبت عليك يوم قلت إن ظهوري لك لم يحدث مثله من قبل لبشر ... الواقع أن كثيرين من الموتى يظهرون للأحياء ... وأن كثيرين من الأحياء يعيشون ويختلطون بالموتى ... إن الحاجز بين العالمين غير موجود ... إنه حاجز وهمي، وهو العقل الذي يسدل ذلك الستار بين هذين العالمين ... ولكن من الناس من يخرج أحيانًا على سلطان العقل، فيرفع في الحال الستر لنفوسهم ويبصرون ما وراءه ويمتزجون بمن خلفه ... فإذا احتفظوا بهذا السر لأنفسهم سلموا ... أما إذا باحوا به فقد اتُّهموا بالجنون ... ثِق

أن كثيرين قد ظهرت لهم «حتشبسوت» و«نفرتيتي» و«سميراميس» كما ظهرتُ أنا لك ... وعاشوا متحابين آمنين ما بقي السر مكتومًا ... أما الذين فقدوا ضبط أعصابهم فأعلنوا ذلك للناس، فهم أولئك الذين تراهم يعمرون مصحات الأمراض العصبية والعقلية.

– ما أظلم الناس!

– بل ما أظلم العقل! ... هو الحاكم المسيطر في حياة البشر، الذي يحجب عنهم نصف الوجود، فمن جرؤ ونزعه ليرى خارجه ... لم يقل الناس إنه تحرَّر، بل قالوا إنه مرِضَ ... ذلك أن هذا الحاكم الجبار — ككل طاغية — لا يُسمي الخارج عليه متحررًا، بل يسميه مريضًا يستحق العلاج والحبس.

– من حُسن الحظ أن أمريكا بلد الحرية، ونحن فيها نكره الطغاة والمسيطرين ... وإنكِ سترين للحرية تمثالًا عظيمًا عند مدخل نيويورك ... فاطمئني يا كليو، ولا تخافي شيئًا.

– حقًّا ... إنها لحرية في تمثال، ولا أكثر من تمثال!

ستبوح للناس إذن؟

– لا ... لا ... لم أقل ذلك.

إذا وافقت أنت ... ومن يدري؟ ... قد توافقين يومًا.

– سترى إذن ما أصنع.

مرَّت أسابيع ... وإذا صحفي ذو شأن يأتي من نيويورك ليجري حديثًا مع «ماك آرثر» ...

وطالعت «كليوباترا» في وجه القائد الأمريكي ما رابها وأثار قلقها ... وأدركت أنه قد لا يستشيرها، ورجحت أن لسانه سينطلق ... وأنه قد يضعها أمام الأمر الواقع وجهًا لوجه ... ويقدمها للصحفي قائلًا: «الملكة كليوباترا» أو «مسز كليوباترا»!

لم تطق هذه الفكرة ... وأسرعت من فورها تبحث عن ثعبان ...

لقد جرَّبت الموت من عضته ... إنه لا يُحدِث تشنجًا ولا تمزقًا، بل يغرق الإنسان في شبه نعاس هادئ يتمنى من يقع فيه ألا يصحو منه ... إلى أن تضعف حواسه ويموت موتًا لذيذًا ...

غير أنها ذكرت وقتئذٍ أن «الأسبرين» يحدث اليوم عين الأثر ... فاضطجعت على فراشها وهي بملابس الضابطة ... فابتلعت أنبوبتين.

وعَلِم «ماك» بالحادث ... فدخل عليها مُسرعًا، فوجدها في النزع الأخير ... وانحنى عليها متفجعًا، وهمس في أُذنها: كليو ... كليو ... ماذا صنعتِ؟!

فقالت وهي تحتضر: هل أخبرت الصحفي؟

– كلا يا كليو.

– ماك ... احفظ سري في قلبك وحده!

وأسلمت الروح ... للمرة الثانية ... وربما للمرة الثالثة أو العاشرة ... أو المائة ... لا أحد يدري.

ظلَّ هذا السر مكتومًا بالفعل زمنًا ... إلى أن مَرِض «ماك آرثر» بحمى خفيفة، فجعل يهذي في الليل، ويقول للممرضة القائمة على فراشه: كليو ... كليو ... هل عُدتِ إلى الحياة مرة أخرى من أجلي؟!

وحار جميع من حوله في أمر «كليو» هذه ... فهم لم يسمعوا «الجنرال» يلفظ هذا الاسم أمامهم من قبل ...

وتساءلوا من تكون؟ ... أتراها تلك الضابطة «مسز كليتون» سكرتيرته التي أمضها الأرق، فماتت منتحرة بالأسبرين؟!

هكذا قال من أخذ الأمور بظواهرها ... أما الحقيقة التي لم تُنشر حتى الآن، فهي التي رُويت هنا بحذافيرها ... ولمن يرتاب أن يلجأ إلى الجنرال «ماك آرثر» نفسه ... وهو لن يستطيع أن ينفي الوقعة.

موقف حرج

حدث ذات صباح أن كنتُ جالسًا على إفريز المقهى المعتاد بجوار صديقي حسن «بك» ... وهو ليس من أصحاب الألقاب ولا حملة الرُّتب، ولكن هكذا نُناديه لأن حب المظهر شيء في دمه، والرغبة في «التظاهر» طبع فيه.

مرَّ بي في ذلك اليوم مُصادفة، فأجلسته وأكرمته، ولم أكن رأيته منذ شهور ... وأمرت له بفنجان من القهوة ... وأخذنا في الحديث ... وإذا شخص يدنو مني مبتسمًا مترددًا، فالتفتُّ إليه وبادرته: من حضرتك؟

– أنا اسمي ... مُرقص.

– طلباتك؟

فمال على أُذني هامسًا:

هل تقبل أن تكسب خمسين قرشًا في اليوم، وأنت جالس في مكانك هذا، بدون أن تصنع شيئًا؟

– بالطبع ... لا مُوجِب للرفض.

قلتها على البديهة، كأنها من وحي الشعراء.

فبادر الرجل يقول: إذن اتفقنا ... وهذه دفعة على الحساب ...

وأَخرج بالفعل ورقة مالية من فئة الخمسين قرشًا، دسَّها في كفي، فوضعتها على الفور في جيبي، وأنا أقول: اتفقنا.

وانصرفت عنه إلى استئناف الحديث الذي انقطع بيني وبين حسن «بك»، ولكن الرجل حدَّجني بنظرة شديدة، وقال: ألا تسألني عن أصل الموضوع؟!

– أي موضوع؟

– لماذا إذن أُعطيك هذه النقود؟

– وهل أنا أعرف؟ ... كل معلوماتي في الأمر، أنه قد تم بيننا اتفاق ... ألم يحصل بيننا الآن اتفاق؟ ... ألم يقع عرض وقبول؟ ... أما من جهتي فقد قَبِلت وانتهى الأمر ... بهذه المناسبة أُحب أن أستفسر منك لماذا تعطيني هذا المبلغ؟

– أخيرًا ... اسمع يا سيدي ... المسألة بسيطة ... أنت تجلس هنا دائمًا تُراقب المارة في غير شيء، فلن يُكلفك جهدًا أن تُراقب سيدة يقال إنها تتردد على هذه العمارة ... فتعرف لنا في أي ساعة بالضبط تدخل، وفي أي ساعة تخرج؟

– وما شأنك بهذه السيدة؟

– لا شأن لي بها على الإطلاق، ولم أرها قط.

– عجبًا! ... وما الداعي إذن لأن تجعلني «شرلوك هولمز» في مسألة لا تعنيك ولا تعنيني؟!

فتنحنح الرجل ثم قال: فلنتكلم بصراحة ... لا أحسن من الصدق والصراحة ... أنا في الحقيقة المُكلف بهذه المراقبة في نظير مبلغ جنيه، ولكني مشغول بعمل آخر، وليس لديَّ الوقت الذي يمكِّنني من أداء هذه المهمة ... ففكرت في أن أستأجرك من الباطن، ونتقاسم المبلغ.

– عظيم يا مرقص أفندي ... أنت في الحقيقة هو الذي لا يصنع شيئًا ويتقاضى خمسين قرشًا.

– وأنت أيضًا لا تصنع شيئًا.

– كيف تقول ذلك يا مرقص أفندي؟ ... فأنا الذي سأقوم بكل المهمة.

– بالاختصار تريد أن أنزل لك عن جزء من حصتي؟ ... فليكن ما تريد ... أنا لا أُحب أن أُغضبك ... إليك عشرة قروش أخرى.

– خمسة وعشرين من فضلك!

– تريد أن تأخذ ثلاثة أرباع الجنيه، وأنا الربع؟!

– هكذا العدل.

فنفخ الرجل غيظًا ... ولكن لم يجد من القبول بُدًّا ... فأخرج من جيبه فرق المبلغ، ونقدني إياه دون أن ينبس بحرفٍ ... فوضعت النقود في جيبي ووعدته خيرًا، وانصرفت عنه إلى محادثة جليسي ... ولكن الرجل لم ينصرف، ودنا مني يقول: حضرتك لم تسألني عن السيدة.

– أي سيدة؟

– التي ستُراقبها ... كيف ستقوم بمراقبتها وأنت لم تعرف مني أوصافها؟

حقيقة ... غاب عن فطنتي ذلك ... اذكر لي أوصافها.

– خير من هذا أن أُريك صورتها، لتنطبع ملامحها في رأسك جيدًا ... إليك الصورة ... انظر ...

وأخرج من محفظة جيبه صورة فوتوغرافية لامرأة مليحة أطلعني عليها بحذرٍ وهي في يده ... فقلت له: هل تسمح لي أن أحتفظ بالصورة؟

– ليس هذا من المستحسن، لأني وعدت أن أحرص عليها ولا أُسلمها لأحدٍ.

– ومن الذي أعطاك إياها؟

– لا يا سيدي، هذه أسرار خاصة، لا يجوز لنا الخوض فيها ... هذا لا يعنينا ... فلنعمل في حدود التكليف، ولا دخل لنا في الباقي.

– أهو زوجها؟

– لا أظن.

– لعله خليلها؟

– ربما.

– خليلها يشك في سيرها ويغار على سلوكها؟!

– فراستك في محلِّها ... على كل حالٍ هذا باب أنصحك ألا تفتحه أو تفتش خلفه ... أسرار العائلات وخفايا البيوت يجب أن تكون عندنا في الحِفظ والصون.

– مفهوم، مفهوم.

– والآن ... أنا معتمد عليك.

– اطمئن فقط لا أُخفي عنك أن ذاكرتي ضعيفة ولا يعتمد عليها، فمن مصلحة العمل أن تترك لي الصورة، ولو ليوم واحد، أرجع إليها وأُطابق حتى لا يحدث لبس أو غلط ... إن السيدات المارات كثيرات ... ومن الصعب على مثلي أن يفرز هذه من تلك ... ففكر الرجل لحظة، وهرش رأسه قليلًا، ثم مدَّ لي يده بالصورة وهو يقول: «لا بأس ... أبقِها معك اليوم»، وأوصاني بالمحافظة عليها لحين ردها إليه في الغد.

وانصرف مرقص أفندي مشيعًا بعبارات التجلة والاحترام، وما كاد يختفي عن بصري، حتى ملت على جليسي حسن بك وقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها — مع حذف مسألة الخمسة والسبعين قرشًا بالطبع — وختمت الكلام بقولي: أنت تعرف أن غفلتي أكبر من فطنتي، وأن سهوي أكثر من صحوي، أما أنت فكثير الفطنة، شديد

اليقظة، فما رأيك لو قمت عني بهذه المهمة ... وألقيت بالك إلى كل سيدة تدخل العمارة أو تخرج منها، وتُطابق أوصافها على الصورة التي سأُطلعك عليها الآن؟ ... على أني قبل كل شيء أحب أن أُصارحك بأن هذا عمل بأجرٍ.

فضحك حسن بك، وقال: لا عليك ... إنني سأقوم به لوجه الله.

– لا يا سيدي الفاضل ... الشغل شغل ... لا يوجد شيء اسمه لوجه الله ... وهل تظن وجه الله يُرى بلا ثمن؟ ... هذا التعبير خطأ في خطأ ... ولست أدري من ابتدعه ... إن وجه الله لا يشاهد بالمجان، بل بمصروفات ... وإليك البيان: لا بد من دفع صدقة وزكاة، ونذور، وفداء، وكفارة، ونفقات حج، وتكاليف زيارة، وإغاثة ملهوف، والتضحية في العيد بخروف ... إلى آخر تلك المبالغ التي لو جمعتها لكان الحاصل رقمًا لا يُستهان به ... فدع فكرة التبرع وتناول أجر عملك طبقًا للأصول المعمول بها في جميع الأحوال.

– أمرك ... انقدني الأجر إذن.

– سأدفع لك ثمن فنجان القهوة ... أتقبل؟

– قَبِلت.

قالها راضيًا مغتبطًا، ومدَّ يده ليتناول من يدي الصورة ... فقلت له: مهلًا ... يجب أن تردَّها إليَّ قبل قيامك ... فقد وعدت أن أردَّها إلى الرجل غدًا.

فقال بابتسامة بريئة: طبعًا ... وما الداعي لاحتفاظي بها طويلًا؟

فوضعتها في كفِّه ... فرفعها إلى عينيه باسمًا بغير اكتراث ... ولكن لم يكد بصره يقع عليها حتى امتقع لونه، وارتجفت يداه، وارتعشت شفتاه ... وهالني أمره، فقلت له: حسن بك ... ما لك؟

فلم يجِب ... وخُيِّل إليَّ أن أُذنه لم تعُد تسمع ... وجمدت عيناه على الصورة، وتصبَّب العرق من جبينه ... فهززته بيدي قائلًا: ما لك يا حسن بك؟ ... هل ... هل تعرفها؟

فقال بصوتٍ ميت ينشر من قبر: كيف لا أعرفها وهي ... زوجتي؟!

وانتفض الرجل انتفاضة خِلت روحه قد خرجت معها، ووثب من مقعده، وانطلق في الشارع يعدو كالمجنون ... ولم يلبث أن غاب عن نظري الشارد، وفكري الذاهل ... وكدتُ أصيح في أثره: الصورة ... الصورة ...

ولكني تذكرت فجأة كارثته ... وأدركت أنها له ... وأنه أحق أهل الأرض بحملها والاحتفاظ بها ... فملكت نفسي ... وثاب إليَّ رشدي قليلًا قليلًا فلعنت يومي ... ولعنت

مرقص أفندي ... ولعنت الخمسة والسبعين قرشًا التي خسرت من أجلها صديقي، وخسر الصديق زوجته، وخسرتْ الزوجة خليلها ... ولو كنت أعلم أن المهمة ستؤدي إلى هذه الفواجع كلها، لطالبت مرقص أفندي بما لا يقل عن خمسة جنيهات.

مراكب الشمس

(١)

رقدتْ زوجة فرعون على فراشها الملكي تستقبل الموت، ولم تكن عيناها المنطفئتان متجهتين إلى زوجها الحزين بجوارها ولا إلى وصيفتها الواجمة ... بل إلى حياتها هي ... إلى ماضيها ... ويا له من ماضٍ فارع على قصره ... ويا لها من حياة فاترة فقيرة على الرغم مما يحف بها من أُبهة وثراء ... إنها تموت وهي في ربيع العمر ... ما أجمل يوم صادفته على الأرض، حتى تستطيع الساعة أن تبكيه بقلبها الذي لم يبقَ أمامه غير بضع نبضات؟ ... أما دمع العين فقد جفَّ مع نبع الحياة التي قهرها المرض، ما هو أجمل يوم لها في عمرها الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين؟ ... أهو يوم زُفَّت إلى زوجها وأخيها ... هذا الفرعون الشاب الواقف عند رأسها؟ ... إنه أخوها من أبيها وأمها ... معه نشأت منذ الطفولة ... وهي تحبه ولا شك، ولكن ... لا ... إنها تعرف الآن أن هذا ليس هو الحب الذي ينبض له القلب ... وهل نبض قلبها مرة؟ ... نعم ... مرة واحدة ... انتفض وأضاء وانطفأ ... كاختلاجة الشمعة الأخيرة ... تاركًا حياتها بعد ذلك في الظلام، إنها تذكر تلك اللحظة ... كان مساءً رقيق النسمات في يومٍ من أيام الربيع الماضي ... خرجت إلى النزهة في النيل، وقد أعدت القوارب الملكية، وأحاطت بها الجواري بالدفوف والمزامير وآلات العزف ... فأقبل الشعب في جموعه لتحية الملكة الجميلة ... وإذا هي تشعر فجأة بعينين تنفذان من بين سواد الشعب كأنهما شهابان ملتهبان، لمعا سريعًا وسقطا في هوة قلبها الفارغ ... من صاحب هاتين العينين؟ ... ولماذا حدق في وجهها هذا التحديق؟ ... ولماذا ارتجفت لنظراته؟ ... كل ما تعلم هو أن الحراس أبعدوه عن طريقها، وأنها سارت بعد ذلك على غير هدى ... تلك هي الخلجة الأولى والأخيرة لهذا القلب الملكي ... أما الآن فماذا ينتظرها؟ ... نزهة أخرى في قارب آخر ... مركب الشمس! ... نعم ... إنهم ولا شك

قد فرغوا من صنعه لها وإعداده ... وعمَّا قليل تُحنَّط ويُلقى جثمانها في تابوت مزخرف ويوضع في قبر سري ... أما روحها فيتلقَّاه الكاهن الأكبر، ويحمله إلى مركب الشمس، بين تراتيل الكهنة وصلواتهم ... ثم يلفظ كلماته السحرية فيرتفع المركب بالروح إلى الفضاء نحو أبواب السماء الأربعة والعشرين! ... هذا ما عرفته يوم مات أبوها الفرعون الكبير، كانت في الرابعة عشرة من عمرها، لا تدرك كثيرًا مما يجري حولها، ولكنها رأت تلك المراسيم ... وسألت يومئذٍ كبير الكهان بسذاجة الطفولة بعد أن فرغ من عمله: هل ارتفع المركب بروح أبي إلى الفضاء؟

فقال الكاهن: نعم ... وهو الآن يسبح في شعاع الشمس، وتضرب مجاديفه النور المتدفق كالأمواج، على نغم الأغاني والأهازيج.

فقالت الطفلة وهي تنظر إلى مركب الشمس بخشبه المصنوع من شجر الأرز: ولكن المركب في مكانه لم يتحرك!

فأجاب الكاهن: روحه هو الذي تحرك ... حاملًا روح أبيكِ.

فسألت الطفلة: وما هو الروح؟

فقال الكاهن: هو أنتِ بغير ردائك الجسدي!

ولم يدع لها فرصة سؤاله بعد ذلك ... كأنما هو قد ضاق بالحديث مع الأطفال في هذه الشئون ... فانصرف سريعًا ... وتركها تسأل نفسها عما لم تفهم ... وهيهات أن تفهم! ... وها هي ذي ... الآن في: وضع أبيها ... وبعد بُرهة يأتي نفس هذا الكاهن ويلفظ كلماته السحرية ويعلن أن روحها قد حمله مركب الشمس، سابحًا به في أمواج النور ... ولن يجد بعدئذٍ من يُلقي عليه أسئلة ... لأن السؤال الأخير الذي لفظته شفتاها وهي تلفظ آخر أنفاس الحياة، وهو ما لن يجيبها عنه أحد، هو: لماذا، ولمن خفق قلبها تلك الخفقة في مساء ذلك اليوم من أيام الربيع؟

(٢)

كان صانع مركب الشمس الذي سيحمل روحها إلى السماء، قد فرغ من عمله، وجاءت جماعة من الكهنة فحملوا المركب إلى حيث تجري عليه الطقوس ... وألقى الصانع نظرة أخيرة على مركبه من عينيه النافذتين، ثم مضى إلى حانة نبيذ اعتاد أن يلتقي فيها برفاقه ... دخل الحان وارتمى إلى جوار صديقه ناحت التماثيل، دون أن ينبس بحرفٍ ... كانا صديقين قديمين ... جمع بينهما الصبا ... وربط بين قلبيهما حادث لا ينساه المثَّال؛ فقد

هبط النيل يومًا ليأتي ببعض الطمي، ففاجأه تمساح كاد يفترسه، لو لم يعاجله صديقه النجار بضربة من سكينة، مُعرضًا حياته للخطر ... كان كلٌّ منهما موضع سر الآخر ... ويوم أَحَبَّ المثَّال وصيفة الملكة، لم يتردد في إحاطة صديقه بكل التفاصيل ... قال له إنه صادفها مرات يوم كان مكلَّفًا بنحت بعض التماثيل لفرعون، وإن الأمر بينهما انتهى بما يشبه الخطبة، لولا مرض الملكة.

أما صانع مركب الشمس فكان في صدره سرٌّ، لم يجرؤ أن يبوح به لصديقه ولا لمخلوق ... إلى أن كان ذلك اليوم.

جلس صامتًا، فالتفت إليه صديقه المثَّال، وقد طرح من يده القدح: أراك تبكي!

– أترى في عيني دموعًا؟

– ليس في عينيك.

قالها المثَّال بنبرة من يؤكد أنه أعرف الناس بما في أعماق صديقه ... وصمت الاثنان لحظة ... وعاد المثَّال إلى قدحه، فجرع منه جرعة ... ثم قال لصديقه: إنك تُخفي عني سرًّا.

فأجاب صانع المراكب بغير مقاومة: نعم.

– لماذا؟

– لأنه جنون.

– تكلم! إني صديقك الوحيد.

فأطرق صانع المراكب هنيهة ... ونظر إلى وجه صديقه مليًّا ... ثم عاد إلى الإطراق.

فقال له المثَّال: تُخفي عني؟! أتخاف مني؟

– بل أخاف عليك ... أخاف أن تُفجَع.

– لا تخف ... تكلم!

فتجلَّد النجار وتحامل وهمس: أحببتها ... ولم أزل أحبها ... وسأحبها دائمًا.

– من هي؟

– الملكة.

فكاد القدح يسقط من يد المثَّال ... ولفظ من شفتين ترتجفان: ماذا تقول؟

– ألم أقل لك إنه جنون.

أطلقها مع ضحكة صغيرة كضحك المخبولين، جعلت صديقه المثَّال ينظر إليه فاحصًا وقد سرت في جسمه رعدة ... ولكنه تماسك وسأله: ومتى رأيتها؟

فهمس صانع المراكب، وكأنه يرى ما يقول ماثلًا أمامه: ذات مساء في يوم الربيع.

(٣)

كانوا قد فرغوا من تحنيط الملكة، وأخذوا يلفُّونها في الأربطة البيضاء قبل أن توضع في التابوت ... وكانت الوصيفة بين الحاضرين دامعة العينين ... فاقترب منها كاهن صغير، وأسرَّ في أُذنها كلامًا، فهزَّت رأسها برفقٍ إشارة الموافقة ... وما إن انتهى عملها، حتى انسلَّت خارجة إلى دار خطيبها المثَّال ... حيث وجدته منفردًا بصديقه النجار ... فما كاد يراها داخلة حتى نهض يستقبلها بقوله: لي عندك رجاء!

هذا الرجاء لم يكن له هو في الحقيقة ... إنما هو ثمرة مناقشات وتوسلات دامت أيامًا بينه وبين صديقه ... لم يكن للصديق من مطلب في الحياة بعد موت الملكة إلا الحصول على تمثال لها، يعيش إلى جواره، ويبثُّه حبه الخالد ... لكن كيف الحصول على تمثالها؟ ... إن هذه الملكة الشابة لم يُصنَع لها غير بضعة تماثيل رسمية لا سبيل إلى الوصول إليها ... ثم هي فوق ذلك غير مُتقنة التصوير ولا بارعة التعبير ... فهذه الملكة المسكينة لم يُمَد لها في العمر حتى يحفل بأمرها الفن ... فقد كان أكثر المثَّالين الرسميين مهتمين بتماثيل الملك ... وعندما قال المثَّال لصديقه النجار إنه لم يُكلَّف بصنع تمثال واحد للملكة، إنما كان صادقًا ... عندئذٍ طلب إليه الصديق أن يصنع لها تمثالًا من أجله ... من أجله هو الذي أَحبَّها حية وميتة دون أن يخاطبها أو تخاطبه ... دون أن تعرف من هو ... دون أن تشعر بحبه ... دون أن يصل بينهما غير شعاع من نظرة، فوق هوة كتلك التي تفصل بين أرض ونجم ... وحتى النجم قد انطفأ ... كل ما يريد من الحياة هو تمثالها ... أيضنُّ عليه الصديق بصنعه؟ ولكن كيف يستطيع المثَّال صُنعه وذاكرته لا تعي من الأصل غير أثر باهت المعالم ... فهو لم يرَ الملكة إلا في شبه لمحة خاطفة، ولم يتأملها التأمُّل الكافي ... وهو الآن لا يذكر من ملامحها شيئًا ... لو استطاع أن يشاهد وجهها الآن ولو لحظة لأمكنه صنع التمثال ... عندئذٍ صاح به صديقه أن هذا الأمر ليس بعسيرٍ ... إن الوصيفة خطيبته ... وفي مقدورها أن تُدبِّر له الوسيلة، فيرى وجه الملكة قبل أن يُحكَم عليها غطاء التابوت ... ومن يدري؟ ... ربما أتاح له الصديق وأراد له القدر أن يصنع في الفن أثرًا عظيمًا ... فهو لا يُكلَّف بتمثالٍ رسمي إرضاءً لملك ... ولكنه يخلق فنًّا من وحي الشعور ... وهكذا تم الإغراء ... وتحمَّس الفنان، إرضاء للفن وللصداقة في آنٍ.

– لي عندك رجاء!

قالها المثَّال للوصيفة مُكررًا ... ثم شرح لها الموضوع ... فأجفلت وارتاعت ... ما هذا الجنون؟ ... أهناك مخلوق يفكر في رؤية ملكة مقدسة وهي في تابوتها ليصنع لها تمثالًا؟ ... هذا بالطبع كل ما فهمته ... فالمثَّال لم يجرؤ أن يفضي إليها بحب صديقه للملكة ... كل ما قال هو أنه يُقدسها ولم يجد بين تماثيلها ما يستحق الخلود ... وأن الفنان قد راقت له فكرة القيام بهذه المهمة، ويرجو من خطيبته أن تعاونه على تحقيق حدث فني جليل ...

وانتهى الأمر بالوصيفة أن أذعنت لرجاء خطيبها الفنان وقالت: فلنسرع إذن قبل أن يُغلَق التابوت عند الفجر! ... ورسمت الخطة ... إنها تعرف سردابًا خفيًّا يصل إلى مكان التابوت وصفته لهما ... وأوصتهما أن يجيئا في ثياب الكهنة، عند منتصف الليل ... وستكون هي في الانتظار عند باب السرداب ... وتركتهما وهي تُحذر حبيبها الفنان باسمة: وحذار أن تُكثر الليلة من الشراب!

(٤)

اتفق الصديقان على اللقاء في الحان المعهود عند هبوط الظلام ... وأقبل صانع المراكب فوجد صاحبه الفنان قد سبقه، وملأ جوفه ببضعة أقداح وهو يقول متمايلًا: لا تخشَ شيئًا ... إن قليلًا من النبيذ يشحذ ذاكرتي ... وأنا أحوج الناس الليلة إلى الذاكرة القوية ... فعلى صفحتها ستنطبع صورة النموذج ... ذلك الانطباع الذي سيمدني بالوحي.

فنظر إليه صانع المراكب بقلقٍ: ولكنك أسرفت.

فقال الفنان ضاحكًا ضحكة صاخبة: أنا؟ ... مطلقًا ... إني أعرف معياري ... ويجب أن أزيد قليلًا عند القيام بعمل هام ... تلك عادتي ... وبهذا صنعت من التماثيل أعاجيب!

ورفع قدحه وجعل يجرع حتى سقط القدح من يده ... وعندئذٍ لم يتمالك صديقه وأنهضه بعنفٍ وخرج به من الحان ... وسار به يسنده حتى لا يسقط، إلى أن بلغا دار الفنان، وكان من المتفق بينهما أن يغيِّرا فيها ثيابهما، ويرتديا ثياب الكهان ... لكن المثَّال ما كاد يدخل داره ويلمس جسمه فراشه الناعم حتى ارتمى ارتماءة لا أمل بعدها في يقظة قريبة ... وحان الموعد المضروب عند منتصف الليل والصديق يحاول عبثًا أن يُفيق صديقه المخمور ... حتى أدركه اليأس، وقال في نفسه: أهي مشيئة الآلهة؟ ... أهو سوء حظي؟ ... ما العمل الآن؟ ... الوصيفة تنتظر ... وهذا الحيوان في سُباته؟! ... أكل شيء ضاع؟!

وفكَّر مليًّا ... ورأى الموقف بوضوحٍ ... أما تمثالها فلا أمل فيه الآن ... ولكن أيترك الوصيفة في الانتظار طول الليل دون جدوى؟ ... أم يذهب إليها ويخبرها بما حدث ... ولماذا لا يذهب؟ ... بل ولماذا لا يُلقي هو النظرة الأخيرة على حبيبته المُسجاة في تابوتها ... تلك النظرة التي ستطبع ولا شك تمثالها في رأسه هو إلى الأبد، أقوى وأصدق من أي تمثال من الحجر!

وارتدى هو ثوب الكاهن ... وترك صديقه مرتميًا على فراشه، وغادر الدار إلى مكان السرداب.

وهناك وجد الوصيفة منتظرة في الموضع المتفق عليه ... فلما رأته وحده تغيَّر وجهها وبادرت تسأل: جئت بمفردك؟

فأجاب باقتضابٍ: خالف نُصحك وشَرِب.

– وأين هو الآن؟

– مخمور في فراشه.

فتحركت مديرة ظهرها تريد الانصراف لشأنها، وقد فهمت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ... ولكن صانع المراكب استوقفها: دعيني أنا أنظر إليها!

– أجننت؟

– أتوسل إليكِ!

– وما غرضك أنت من ذلك؟

– نظرة واحدة ... أخيرة.

– أفي عقلك مس؟

فأمسك بيدها كما يمسك مخلب الصقر بالحمامة، وقال بصوتٍ آمر حاسم أجش مُخيف: قوديني إليها!

ودفعها أمامه ... فلم تجد بُدًّا من الطاعة ... فمشت به في المسالك المظلمة الطويلة لهذا السرداب الخفي، إلى أن بلغت نهايته، فطرقت بيدها جانبًا من الجدار، وإذا بحجرٍ كبيرٍ ينفرج عن بابٍ يؤدي إلى قاعة متسعة مُزيَّنة بالنقوش مضاءة بمصابيح مستترة في كوات بالحيطان وخلف الأعمدة ... ولم يكن بالقاعة أحد فقد غادرها الكهنة منذ قليل ... وكان لها باب كبير مُغلق، وقف عليه الحراس من الخارج ... ولم يجد صانع المراكب في القاعة ما يلفت نظره المعتاد على هذه الأمكنة المقدسة، ولم يحاول أن يبحث ببصره هناك إلا عن شيء واحد هو: التابوت ... وقد وجده موضوعًا فوق مصطبة من

الحجر في صدر المكان، وقد سلط عليه نور خفي، يوحي إلى الناظر أنه منبعث من إشعاع خشبه المطلي بالألوان أو منبثق من ذلك الجسد المسجَّى داخله ... ووقف صانع المراكب جامدًا أمام التابوت لحظة ... إلى أن ذهب عنه الروع فمدَّ يده إلى غطائه الخشبي، يريد رفعه، فتعلَّقت بذراعه الوصيفة تَحُول بينه وبين ما يريد، فتخلَّص منها وتقدَّم إلى الغطاء بذراعيه القويتين فكشفه، وظهر من تحته جسد الملكة ملفوفًا في الأشرطة البيضاء ... فتسمَّر الصانع في مكانه وارتعد ... ودقَّ قلبه دقات سريعة ... وكان رأس الملكة ككل جثمان مخفيًّا في اللفائف ... فتجلَّد ومدَّ أصابعه لينحي الأربطة عن وجهها، فجذبته الوصيفة بعيدًا، وهي تهدر من الغضب هديرًا مكتومًا: كُف عن هذا! ... كف عن هذا! ... أيها الوحش النابش للقبور! ... اخرج وإلا صِحت!

فأسرع ووضع كفَّه على فمها ... فقاومته ... وأرادت الإفلات والصياح، فقبض على عُنقها ... وأذهله الموقف عما فعل ... ولم يدرِ هل ضغطَ بقبضته أو لم يضغط ... ولم يُقدِّر مدى قوة أصابعه ... كل ما وعاه هو أنها سقطت من بين يديه على الأرض ... فوقع في الحيرة لحظة ... لكنه تذكر ما جاء من أجله ... فترك الوصيفة في مكانها مُلقاة، واندفع إلى الملكة المحنطة فحلَّ الأربطة عن رأسها، وانكشف وجهها الجميل الشاحب، وقد زاده صفاء الموت حُسنًا ... أين المثَّال الذي يستطيع صبَّ هذا الجمال في حجر؟ ... هذا ما دار في ضمير العاشق الذاهل وهو يتأمل هذا الوجه الإلهي! ... ولم يكن في تلك اللحظة الفريدة يتأمل بوعي عاقل ... فقد كفَّ عقله عن الحكم والتحكُّم ... إنما هو شعور يملأ كيانه كالإشعاع المدمر ... ولم يستطع أمام هذا الجمال أن يتقدم أو يتأخر ... جمد في مكانه، وأيقن أن من المستحيل عليه الانصراف الآن ... قوة خفية تربطه إلى هذه الملكة المحنَّطة ... لا فرار منها ولا فكاك ... إما أن يُدفن معها أو تعيش معه ... وهنا لمعت في أعماقه فكرة ولم يتردد عن تنفيذها ولم يحجم، وهل يتردد الإنسان عن انتزاع الروح التي بها يحيا من أي مكان ... وتَقدم من ساعته إلى الجثمان المحنَّط فنزع عنه اللفائف ورفعه من التابوت ودثَّره في ردائه واحتضنه بين ذراعيه وأراد أن يمضي به دون وعي من حيث جاء ... فعثرت قدمه بالوصيفة الملقاة على الأرض ... فثاب قليلًا إلى رشده ... ورأى ما هو فيه من حرج ... أيذهب بالملكة ويترك التابوت هكذا فارغًا، والوصيفة هكذا ملقاة؟ ... إن الدنيا كلها ستقوم وتقعد بعد قليلٍ ... وساورته الأفكار المتضاربة ... ماذا يفعل؟ ... أيمضي؟ ... أيرجع؟ ... وخطرَ له خاطر ... لم يتردد هذه المرة أيضًا في تنفيذه على الفور.

وأسرع إلى الأربطة البيضاء فالتقطها ولفَّ بها جسم الوصيفة ورأسها، ثم أرقدها في التابوت موضع الملكة ...

وحمل الملكة على كتفه وخرج بها من السرداب.

(٥)

طلع الفجر ... وبدأت مراسيم الاحتفال الديني بحمل التابوت إلى المقبرة الملكية ... فاحتشد الكهنة ... وحضر فرعون وأسرته وعلت التراتيل ... وقُدِّمت القرابين ... وألقيت نظرة أخيرة على الجسد الملفوف في الأربطة، لا ترى منه شعرة، وأُحكِم غطاء التابوت، ثم نُقل إلى القبر السري الذي لا يعرف مكانه غير أشخاص معدودين ... وفرغ القوم من أمر الجسد، واتجهوا إلى العناية بمصير الروح ... فاقترب الكاهن الأكبر من مركب الشمس الذي أُعد للملكة فباشر المهمة المعهودة ... وقام بالطقوس المعتادة، ونطق بالكلمات الدينية، والتعاويذ السحرية، ثم نهض يعلن إلى الملِ: أن مركب الشمس قد تحرك حاملًا روح الملكة المقدس نحو السماء، وأنه يسبح الآن في الفضاء، تحفُّ به أنغام التراتيل والغناء.

(٦)

في تلك اللحظة، كانت الملكة في مركب حقًّا ... ولكن ليس مركب الشمس، بل مركب في النيل، يسبح بها إلى الضفة الأخرى ... كان جسدها المحنَّط محتفظًا بطراوته ولدانته ونضارته، وأريج العطور من حولها منتشرًا ... وكانت موضوعة في مقعد المقدمة وضع الجالس المتكئ ... وأمامها جلس سارقها صانع المراكب يضرب بمجدافه صفحة الماء ... ويرنو إليها ويقول: تلك هي النزهة التي طالما حلمتُ بها ... معكِ! ... نعم ... أنتِ الآن هنا معي في مركبي! ... يا للسعادة! ... تُرى ماذا كنت تُفضِّلين؟ ... هذه النزهة معي في مركب النيل؟ ... أو تلك النزهة الأخرى بمفردك في مركب الشمس؟

(٧)

أفاق المثَّال من سُكره في الصباح، فوجد نفسه بثياب البارحة في فراشه ... ففرك جبينه محاولًا التذكر ... ولم يلبث أن أدرك ما حدث ... فقام وخرج باحثًا عن صديقه وخطيبته، ليُعبِّر لهما عن أسفه ... أما الخطيبة فلم يكن من السهل مقابلتها في ذلك اليوم ... فقد

شاهد القصر هائجًا مائجًا بالكهنة والحراس ومُعدات الاحتفال ... وأما الصديق فلم يجده في الحان، ولم يصادفه في أي مكان ... وخطر له آخر الأمر أن يبحث عنه في دار له مهجورة، في الضفة الأخرى من النيل كان قد تركها لبُعدها، وجعل منها اليوم شبه مخزن لأخشابه وأدواته ونماذج مراكبه الشمسية ... فعَبَر النيل إلى تلك الدار، ولم يكد يقترب منها، حتى سمع شبه همس وهمهمة ومُناجاة ... فطرق الباب ... فلم يُفتَح سريعًا ... فأعاد الطرق، وانتظر وقتًا أكثر قليلًا مما ينبغي في مثل هذه الحال، وإذا الباب يُفتَح بحذرٍ، ويطل منه رأس صديقه، فما إن رآه حتى تغيَّر وجهه ... ولكنه يتماسك ويخرج إليه، متحاشيًا دعوته إلى الدخول ... وظنَّ المثَّال أن هذا الاستقبال الفاتر أمر طبيعي، بعد أن أضاع على صديقه فرصة البارحة بسكره ... فبادر يقول له: إني في شدة الأسف ...

فلم يبد على الصديق أنه فهم أو تذكر ... فقد قال متسائلًا ببساطة من لا يحمل مرارة ولا عتبًا: لماذا؟

فحملق المثَّال في وجه صديقه، فلم يجد به إلا أثر القلق والارتباك والرغبة في غلق باب الدار والابتعاد بالضيف عن عتبته ... فقال له مازحًا: أليس عندك هنا ما يُشرَب؟

فقال صانع المراكب في شبه ارتياحٍ: لا ... لا ... هذا مكان مهجور كما تعلم ... فلنذهب عنه ... فلنذهب ... لقد جئته اليوم لأحضر بعض الخشب ... فلنتقابل في الحان الليلة ... إذا شئت ... في الحان ... في الحان ... إلى اللقاء!

(٨)

وفي ذلك اليوم وقع في ساحة المعبد حادث غريب ... فقد أقبل رجل من عامة الشعب يجري ويصيح معلنًا أنه شاهد بعينيه في السماء قرصًا طائرًا يشع نورًا قويًّا أخضر اللون، ما يشك في أنه مركب الشمس الذي يحمل روح الملكة الشابة في رحلتها السماوية ... واجتمع الناس حوله واشتد اللغط ... وتفاقم الجدل ... وبلغ الأمر مسامع الملك ورجال الدين ... فجاءوا بالرجل واستجوبوه فأصرَّ مؤكدًا: رأيت بعيني!

وجاء فرعون بكبير الكهان، وسأله: أيمكن لمركب الشمس أن يُرى في السماء بالعين؟

فأجاب الكاهن بلهجة قاطعة: مستحيل.

– وما القول فيما يقرره هذا الرجل؟

– إنه كاذب أو مخدوع ... ولا يُعقَل أن يظهر في السماء لأعين العامة، المركب الذي يحمل روح تلك الملكة الشابة ... ولا تظهر قبل ذلك المراكب التي تحمل روح فرعون الكبير والدكم أو الفراعين العظام من أجدادكم! ... هذا رجل كاذب خادع يجب أن يموت!

– ألا يمكن أن يكون هذا المركب الطائر ذو النور الأخضر لأحد الآلهة؟

– لو كان لأحد الآلهة لرأته عيوننا نحن الكهنة لا عين رجل من عامة الشعب!

– ولماذا لا تقول أيها الكاهن الأكبر إن سحرك استطاع آخر الأمر أن يُحدِث هذه الأعجوبة.

– سحري؟!

لفظها كبير الكهنة متمهلًا متأملًا ... أيقبل هذا التفسير مع ما فيه من فضل يغري بالزهو أم يرفضه؟ ... إذا قبله فقد يُطالب فيما بعدُ بإظهار مراكب الشمس في السماء إظهارًا مرئيًّا للعيون ... وهو ما لا قِبَل له به ... الأضمن له إذن أن يرفض ... وأن يبقى سحره في منطقة الروح وحدها ... وعندئذٍ صاح: كلا ... كلا ... إن هذا ليس سحري ... ولكنه سحر المتآمرين على ديننا القديم ... هذا الرجل يجب أن يموت!

(٩)

وفي ساحة الموت، وقف الرجل أمام قضاته من الكهنة يردد صائحًا: رأيت بعيني!

فقال له القضاة: أتنكر الروح؟

فقال بإصرارٍ: لا أنكر الروح ... ولكني رأيت الواقع!

وإن الإصرار حتى الموت له دائمًا قوة السحر، فهو يخلق أحيانًا الإيمان في النفوس ... وكان لموقف هذا الرجل الناهض من بين الشعب ليتحدى القوة الهائلة الممثَّلة في فرعون والكهنة، تأثير في الناس ... فقد تهامست جماعة منهم مؤمنة بما يقول: لا شك أنه صادق ... إنهم سيقتلونه لأنه رأى ما لم يستطيعوا هم أن يروه!

(١٠)

مضت أيام والمثَّال يبحث دون جدوى عن خطيبته الوصيفة ... وسأل عنها في القصر؛ فقيل له: ما من أحد رآها منذ اليوم الذي دُفِنت فيه مولاتها ... وليس هذا بغريبٍ في نظرهم من وصيفة أمينة، يأبى عليها الوفاء أن تخدم غير ملكتها، أو تبقى في مكان ضمَّهما معًا ردحًا من الزمن ... ولكن أين ذهبت؟ ... وهل يَطول اختفاؤها حتى عنه

هو؟ ... إنه لم يرها منذ الساعة التي تمَّ فيها الاتفاق على اللقاء عند السرداب ... ومن أجل صديقه ... وهذا الصديق أيضًا ما خطبه؟ ... ماذا دهاه؟ ... إنه يهرب منه الآن على نحوٍ مريبٍ ... وإن مسلكه معه كان حقًّا غريبًا يوم ذهب إليه في داره المهجورة ... ما من شكٍّ في أنه عَمِل على إبعاده عن تلك الدار ... لماذا؟ ... نعم ... إنه يذكر جيدًا الآن ما سمع قُرب الباب ... تلك الهمهمة ... تلك المناجاة التي كان يصل همسُها من الداخل ... تُرى من كان بالدار وقتئذٍ مع صديقه؟ ... أهي امرأة؟ ... يا للويل! ... من تكون؟ ... أتراها هي؟ ... أتراها خانته مع الصديق؟ ... لم يطق تلك الفكرة! ... وعزم على أن يدهم الدار ... وقام لساعته وعبَر النيل إلى الضفة الأخرى، ومضى توًّا إلى دار صديقه، وطرق بابها طرقًا شديدًا، فلم يُجِبه أحد ... فدفع الباب بعنفٍ فانفتح ... ودخل ... فلم يجد أحدًا داخل الدار ... غير أن عينه لمحت خلف أحد المراكب المسندة إلى الحائط بابًا صغيرًا يؤدي إلى حجرة مفروشة ... فدلف إليها وإذ هو يتسمَّر في مكانه، وقد جمد الدم في عروقه ... فقد وجد نفسه أمام الملكة الشابة متكئة على فراش وثير ... وثاب إلى رشده بعد قليلٍ، وطافت برأسه الخواطر سراعًا ... وأدرك ما يمكن أن يكون قد حدث ... ولكن السؤال الرهيب هو: من التي حملوها في التابوت إذن، ووضعوها في المقبرة؟

ولم ينتظر جوابًا ... وخرج من الدار كالمصعوق.

(١١)

لم يدرِ المثَّال ماذا يفعل إزاء كل هذا؟ ... ومشى في الطرقات يُسائل نفسه كالمخبول: من المدفونة في قبرها؟ ... أين اختفت خطيبته؟ ... وهل بين الأمرين علاقة؟ ... أيمكن أن تكون المدفونة هي؟ ... يا للهول! ... وكيف دُفِنت هكذا؟ ... ولماذا؟ ... مهما يكن من أمرٍ فلا بد من فتح المقبرة ... فالملكة ليست راقدة فيها ... يجب أن يذهب إلى فرعون وإلى الكهنة ويصيح: هلموا! ... هلموا! ... الملكة ليست في المقبرة ... ولكنهم سيقبضون عليه، ويقولون له: كيف عرفت؟ ... فبماذا يُجيب؟ ... أيدلُّهم على دار صديقه ويوقع به قبل أن يتبيَّن حقيقة المدفونة؟ ... لا ... لا يفعل ذلك ... فليقل إنه رأى في الحلم أحد الآلهة يخبره بهذه الحقيقة.

واتجه من الفور إلى كبير الكهان، وأعلن إليه الأمر ... فنهض صائحًا: ماذا جرى اليوم؟! ... كل الناس يرون الآن الآلهة إلا نحن الكهنة؟!

ثم التفت إلى المثَّال مُهددًا: أتعرف عاقبة هذا الادعاء والكذب؟

فلم يتردَّد المثَّال وقال باطمئنان: الموت ... وأنا مستعد له، إذا اتضح كذبي ... والأمر بسيط ... افتحوا المقبرة تعرفوا الحقيقة.

وقَبِل فرعون والكهنة هذا التحدي ... وفُتِحت المقبرة ... وكشف غطاء التابوت ... وإذا الجميع أمام منظر تقشعر له الأبدان ... فقد شاهدوا أسنان امرأة برزت من بين أربطة الوجه ... وكأنها كانت تجاهد في تمزيقها حتى ماتت عليها.

وجرِّد الجسد من لفائفه فإذا هو جسد الوصيفة ... وبهت الجميع ... وصاح فرعون: أين الملكة؟

وأفاق المثَّال من ذهوله وفجيعته وغيظه المكتوم ... وأدرك جريمة صديقه فرفع رأسه قائلًا: هناك في الضفة الأخرى ... دار صانع مراكب الشمس

(١٢)

في تلك الأثناء كان صانع المراكب قد عاد إلى داره، فوجد الباب مفتوحًا، وعلى العتبة آثار أقدام، فتملَّكه الخوف، وخُيِّل إليه أن أمره قد انكشف، فأسرع وأعدَّ مركبه، وحمل الملكة وأزمع الرحيل والهرب ... وكان الليل قد أقبل، فاتخذ منه سترًا ودرعًا ... واشتدَّ في التجديف منطلقًا بمركبه نحو الجنوب.

(١٣)

وجاء الحرَّاس والكهنة إلى الدار ... وفتشوها فلم يجدوا فيها أثرًا لأحدٍ ... فالتفت أحدهم إلى المثَّال وصفعه قائلًا: أيها الكاذب؟ ... أين الملكة؟

أنت سارقها وستلقى جزاءك!

– وإذا أحد الصيادين جاء يقول: أبصرت رجلًا يحمل جسد امرأة في قاربٍ، ويُسرع في النيل نحو الجنوب.

فانطلق الحرَّاس والكهنة إلى مراكبهم حاملين المشاعل المضيئة في أثر الملكة المسروقة، وكأنه موكب النور يشعُّ روحها في رحلة السماء ... وأبصروا آخر الأمر المركب الهارب، فاشتدوا نحوه ... واستدار صانع المراكب ينظر خلفه، فرأى القصاص يدنو منه، وأيقن بالهلاك ... فترك المجداف، وركع أمام الملكة الموضوعة أمامه، وقال: آن لنا أن نفترق ... شكرًا لكِ أيتها الحبيبة على ما أعطيتني من لحظات سعادة ... لن أستبقيكِ طويلًا ها هنا ... ولن أحُول بينك وبين سمائكِ الأبدية ... أما أنا فإلى الظلماء التي تنتظرني ... وداعًا!

ولثم يدها بخشوعٍ ... ثم قام منتفضًا وألقى بنفسه في الماء ... فالتهمته التماسيح.

(١٤)

أُعيدت الملكة إلى تابوتها ... ولكن المثَّال أثار مشكلة حيَّرت الكهنة ... فقد قال في جموع الشعب إن الوصيفة قد ارتفعت بروحها فوق مركب الشمس بدلًا من الملكة ... فقدموه إلى المحاكمة ... وقال له الكاهن الأكبر: أتدري ما هو عقابك؟

فقال المثَّال: أدري ما هو أهم من عقابي؟ تلك الحقيقة التي اعترفتَ بها أنت أيها الكاهن الأكبر ... أتنكر أنك قُمتَ بمراسيمك الدينية ونطقتَ بكلماتك السحرية نحو الجسد الذي رقد في التابوت؟ ... ثم أعلنت أنه ارتفع على مركب الشمس إلى السماء الأبدية؟ ... هذا الجسد كان لمن؟ ... ألم يكن للوصيفة؟

فقال الكاهن بحدة: لا يمكن أن يرتفع روح الوصيفة إلى السماء.

فقال المثَّال: إذن سحرك كان باطلًا.

فارتبك الكاهن قليلًا، وأطرق الكهنة من حوله حائرين ... ذلك أن الطقوس التي أُجريت إما أن تكون صحيحة وبهذا ترفع روح الوصيفة إلى السماء، وإما أن تكون باطلة لا ترفع أحدًا ... والكاهن يصرُّ على أنها صحيحة ... وأنها رُفِعت بالفعل، لأنه أعلن ذلك يوم الاحتفال بالدفن.

فكر الكاهن مليًّا، ثم قال: إن السحر صحيح، وقد رفع روح الملكة، وهذا ما أعلنته من قبل، وأعلنه اليوم وأؤكده ... لأن روح الوصيفة لا يمكن أن يُرفَع إلى السماء على مراكب الشمس.

فصاح المثَّال: ولِمَ لا؟

فقال الكاهن بعنفٍ: لأنها من الشعب ... ومراكب الشمس لا تحمل غير الملوك.

– أوَلا يمكن لأبناء الشعب أن يرتفعوا يومًا على تلك المراكب كالملوك؟

– لا.

فلفظ المثَّال صيحة ثائرة: هذا ظُلم! ... هذا ظلم!

فارتفعت أصوات الاستنكار من الكهنة، وتمايلوا يتهامسون ويقررون أن هذا الثائر قد فاه بأمرٍ عظيمٍ؛ لا ينبغي أن يظل بعده في الأحياء ...

وحكموا عليه بالموت ...

واجتمع الناس في ساحة الموت ينظرون إليه، وهو باسم الثغر، هادئ النفس، فذكَّرهم منظره بمنظر ذلك الرجل الذي أُعدم بالأمس؛ لأنه رأى شيئًا أنكره الباقون ...

وقال بعض الناس لبعض ساخرين: إنه يريد لروح الوصيفة خطيبته أن يُحمل على مراكب الشمس التي تحمل الملوك.

وقال البعض: لا تسخروا منه إذا أراد لوصيفته ذلك ... فمعنى هذا أنه يريد لنا جميعًا ذلك!

– لنا جميعًا؟!

ونظروا إليه وهو يلفظ آخر أنفاسه، فوجدوا على فمه ابتسامة صافية رضية، وكأنه يُجيبهم مُبشرًا!

– نعم ... ولِمَ لا؟!

وهكذا تنتهي هذه القصة التي لم يذكر لنا التاريخ عنها شيئًا ... فهو قلَّما يخطُّ بحروفه ونقوشه على الأحجار غير أخبار الملوك ... أما موت هذين الشهيدين من شهداء مراكب الشمس فلم يُنقَش خبره على حجرٍ، لكن نبتت بذرته في القرون والأجيال، تُروى بالدم، وتنمو وتمتد لتثمر فصيلة الرجال المطالبين بحق الرأي وحق الشعب.

هنداوي